فكر

أيها الشباب لا تفقدوا الأمل

عبد الجواد السيوطي

أيها الشباب لا تفقدوا الأمل
فكر
عبد الجواد السيوطي

إصدار: نوفمبر ٢٠١٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٦٦٥٧ / ٢٠١٧

الغلاف والإخراج الفني:
دار لوتس للنشر الحر

مشروع النشر الحر
رقم الإصدار: (١٦)

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأية طريقة دون موافقة المؤلف أو دار النشر

كل ما ورد بهذا الكتاب مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر

منشورات دار لوتس للنشر الحر
شركة لوتس للإنتاج والتوزيع
القاهرة الكبرى:
١٦ شارع محمد موسى متفرع من أول شارع فيصل بجوار محطة مترو فيصل
هاتف: ٠١٠٩١٩٨٥٨٠٩ – ٠١١١٦٣٨٩٣٤٧
الإسكندرية:
٦ شارع بن دينار – محرم بك – امبروزو
هاتف: ٠١٠٦٨٦٣٨٣٧٧
المغرب: الدار البيضاء
٢٧٠ زنقة ١٦ – حي البركة – مولاي رشيد
هاتف: ٠٦٦٤٣٩١٢٦١

مشروع النشر الحر
أول مشروع من نوعه يمنح الكاتب كافة الحقوق، والحرية الكاملة لنشر كتابه بدون احتكار لمجهوده في عملية تجارية.

للتواصل مع الدار والمشروع
هاتف / واتس آب:
+2 01091985809 - +2 01116389347
الموقع الإلكتروني:
www.lotusfreepub.com
البريد الإلكتروني
Lotusfreepub@gmail.com
حساب فيسبوك
www.facebook.com/lotusfreepub1
صفحة فيسبوك
www.facebook.com/lotusfreepub

إهداء

إلى الشعوب الإسلامية المظلومة التي يتحكم فيها الطُّغَاة الظالمون.

إلى كلّ شابٍّ وكلّ أبٍ وأمّ كُلّكم راعٍ وكُلُّكم مسئولٌ عن رعيته.

إلى كل الدعاة المخلصين الغيورين على شباب الأمة في كل مكان.

إلى كل أصحاب القنوات الهابطة التي أفسدت البلاد والعباد، ألا ارجعوا إلى ربكم وتوبوا إليه.

إلى والدي رحمه الله، ووالدتي اللّذَان تعبا كثيراً من أجلي.

إلى زوجتي وأولادي وأخي الّذين ضحّوا براحتهم لأجل راحتي.

إلى كلّ أساتذتي الذين تعلمت منهم الكثير والكثير ولهم الفضل عليَّ بعد الله.

في البداية

نصرٌ قريب، ووعد الله سيتحقَّق

نورٌ من القرآن الكريم:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ {الكهف/٣١}

قبس من السنة المطهرة:

قال رسول اللهُ ﷺ: «لا تزولُ قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وماذا عملَ فيما علم».

كلام من ذهب:

قالت حفصة بنت سيرين: «يا معشر الشباب إعملوا فإني رأيت العمل في الشباب».

من الشعر العربي قال هاشم الرفاعي:

بَنينا حقبةً في الأرضِ ملكاً ... يُدَعّمُه شبابٌ طامحونا

شبابٌ ذلّلوا سُبل المعالي ... وما عَرفَوا سوى الإسلام دينا

تعهدهم فأنبتهم نباتاً ... كريماً طاب في الدنيا غُصونا

شبابٌ لم تحطمه اللّيالي ... ولم يسلم إلى الخَصْمِ العرينا

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسول ﷺ، الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يُحب ربنا ويرضى، والشكر له على ما أولى من نعم سابغة وأسدى. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه ﷺ وعلى آله نجوم المهتدين، ورجوم المعتدين. ورضي ﷻ عن صحابته الأبرار الذين قاموا بحق صحبته، وحفظ شريعته، وتبليغ دينه إلى سائر أمته؛ فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

اللهم إني أسألك الإخلاص في القول والعمل، وفي السّرِ والعلن، اللهم هيئ ليَ من أمري رشداً. أسألك ربي علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وعملاً صالحاً متقبّلاً آمين.. آمين.. آمين.

وبعد،،

فإن هذا الموضوع من الأهمية بمكان؛ إذ هو موضوع مرحلة مهمة بل أهم مراحل عُمْرِ الإنسان خاصةّ شبابَ المسلمين الذين هم

أكبر ثروة بالنسبة لنا، وأكبر شريحة مستهدفة من قِبَل الأعداء.
ولم أتردد في الكتابة في هذا الموضوع، وهذه الأمور:
الأمر الأول: أن أتعلم من أستاذتي الفضلاء الذين يطّلعون عليه وكل من يقرأ كتابي هذا بتسديد آرائي وتصويب أخطائي، فما أنا إلا كما قال الأول: «من جهلنا نخطئ ومن أخطائنا نتعلم» وكما فعل ابن عباس مع أحد تلاميذه إذ قال له ابن عباس: «قم فتكلم، فقال له تلميذه: كيف أتكلم بين يدي أستاذي؟ قال حتى تخطئ فأسددك» فيالها من تربيةٍ عظيمة نحتاجها.
الأمر الثاني: إنّ هذا الموضوع من أهم الموضوعات وأخطرها خاصةً في هذه الأيام والتي أختلط فيها الطيب بالخبيث والحابل بالنابل والعالِم بالجاهل والصالِح بالطالح، بعد غَزْوِنا الفكري من الغرب الكافر، أو الشرق الملحد، وبعد أن بَعُدَ الكثير من شبابنا عن الطريق القويم بما يُراد له، أو يُحَاك ضده. فأحببت أن أجمع -إن صح التعبير- بعض الخطوط العريضة من سير السَّلف الذين كان منهجهم القرآن، وقدوتهم رسول ﷺ ومن سار على نهجهم؛ حتى تكون لنا علامات وإشارات نسير عليها، نحن شباب الإسلام في هذا العصر الذي كثرت فيه الفتن.
الأمر الثالث: أنني عشت وما زلت في هذه المرحلة وأقوم بحكم عملي بالتدريس لجميع المراحل العُمْرية وخاصة هذه المرحلة (الثانوية والجامعية)، وعانيت مما يعاني منه الكثيرين أمثالي،

فأحببت أن أطرق الباب وأتكلم فيما يخص هذه الشريحة المهمة والمستهدفة من الأعداء.

وما من كاتبٍ إلا سيفنـــــى ويُبقَى الدَّهرُ ما كتبت يداهُ
فلا تكتب بخطك غير شيءٍ يَسُرّك في القيامة أن تـــــراهُ

• • •

يا شباب الأمة

أيها الشباب: إن أمَّتَكم الإسلامية تحتاج إليكم جميعا، وإن الأعداء يتربصون بكم الدوائر، ترون لماذا؟ لأنكم عصب هذه الأمة، فَبِكُم يأتي النصر لها، وعلى أكتافكم تقوم دولة الإسلام، وفيكم يوصي النّبيّ ﷺ.

نعم لقد نُصر الإسلام بفضل الله أولاً، ثم بكم، وأنكم أيها الشباب ستُسألون سؤالاً خاصاً عن هذه الفترة من عمركم، وذلك لأن هذه الفترة من العمر هي بحق الفترة الحرجة والخطيرة من عمر الإنسان وهي فترة الشباب، وهي مرحلة من أهم مراحل الإنسان وسيكون هناك سؤالٌ مباشرٌ عنها يوم القيامة، عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أن النّبي ﷺ قال: «لا تزولُ قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[1]

ومن ثمّ فإننا نلحظ أن هذه الشريحة من شباب الأمة قد صارت في أمر خطير في عصرنا، وليس هذا الأمر في الغالب الأعَمّ إلّا من غيابِ شعور الانتماء لأمته، أو الإعتزاز بهويته الإسلامية، وهذه علامة من أهم العلامات التي تُنذر بخطر شديد على أمتنا

(١) صححه الألباني

قد تعصف بالأمة؛ تحتاج إلى جهود ضخمة، ورعاية شديدة، وتضحيات هائلة.

نجد الكثيرين منهم لا يهتم بقضايا أمته! فأين أمتنا بين الأمم؟ ما موقعها الثقافي والفكري والتعليمي بين الأمم الآن؟ ما ترتيب جامعاتنا بين جامعات العالم ؟ ما هي أولويات الشباب الآن؟ وما أهدافه -هذا لمن عنده أهداف أصلاً- والواقع يبين لنا أن الشباب المسلم -إلا ما رحم ربي- يعاني من بعض الأمراض الخطيرة والتي تحتاج إلى رعاية متكاملة وجادة من المجتمع كله الشعوب قبل الحكومات، وإلى علاج عاجل، واهتمام مكثف ممن بأيديهم الحل والعقد، ومن أعتى هذه الأمراض الخطيرة التي اِبتلي بها الشباب المسلم، عدم وضوح الهدف عند الغالبية العظمى منهم، فهو لا يدري ما دوره في الحياة، وما قيمة وجوده في الدنيا، ولماذا استخلفه اللَّهُ في الأرض، فلقد ضاع الهدف عند الكثير من الشباب حتى أصبح الهدف كل الهدف لا يتعدى أن يكون سيارة أو عقار أو زوجة أو جوال، وغير ذلك من الأمور المادية البحتة، وإن كانت هذه الأهداف في الغالب ليست محرمة في ذاتها لكنها لا يجوز أن تكون هي كل شيء في حياته، أو أنها مبلغ علمه أو منتهى أمله.

أقول: وإن كانت هذه الأهداف مباحة في حد ذاتها إلّا أنّها بسيطة بالنسبة لما أنت مخلوق لأجله، ولكنك في غالب الأحيان تجد

عند الكثيرين أنّ هذه الأهداف البسيطة انقلبت من كونها وسائل لتحقيق أهداف كبرى، إلى أنّها أهدافا نهائية عظيمة في نفسها، ولسان حالهم يقول: «إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا» وهذا إن حدث ولم يجد مَن يقوم وبسرعة بإصلاحه فهو الكارثة، فقد أصبح معظم الشباب المسلم منشغلاً بالطعام والشراب والألعاب والشهوات، ولم يَعُد يهتم بغير ذلك إلاّ من رحم ربي وعصم.

يا شباب الإسلام ويا دُعاته: ألم تروا ما قد أصاب معظم الشباب من سلبية عجيبة قاتلة، حتى كادت الأمة أن تُشرف على الغرق في مستنقع هائل من المشكلات، وها هو الشباب يشاهد ويتفرج ويراقب ولكن عن بُعد، وكأن الأمر لا يعنيه من قريب ولا من بعيد، مع العلم بأنه سيكون أول الغارقين من الأمة لأن الأمة أمته، والوطن وطنه، والدين دينه، والمستقبل مستقبله، ألم تروا أنّه قد ترسخ في مفهوم الشباب أنّهم ما زالوا في سنٍ صغيرة لا تسمح لهم بالتفكير في حل مشكلاتهم فضلاً عن أن يفكروا في حلِّ مشكلات أمتهم الإسلامية! والسؤال هو: هل ما زال الشباب صغيراً فعلا؟ وهل الصغير فعلا هو صغير السّن؟ أم أنّ الصغير حقيقةً هو الصغير في الفكر والفهم وفي الخُلُق وفي العقيدة وفي الهدف وفي الطموح، من هنا نعرف أن الطفل يُعَرّف في الإسلام بتعريف يختلف عن تعريفات القوانين الأرضية الوضعية، ومن ثمّ

فهذا الاختلاف يترتب عليه عمل كبير ومُهِم. فالأمم المتحدة مثلاً تُعرّف الطفل بأنه من هو دون الثامنة عشرة، بينما في الإسلام يكون الطفل هو من لم يبلغ الحُلُم أو الذي لم يصل بعد إلى سن البلوغ، أي قد ينتهي الطفل من مرحلة طفولته وهو في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره، وبعدها يكون الطفل قد وصل إلى سن الشباب، بمعنى أنه قد أصبح شاباً له حقوق وعليه واجبات تجاه دينه ونفسه وأهله ووطنه، وبذلك تأتي هذه المرحلة من عمر الإنسان بكل ما فيها من تَبعات ومسئوليات، فأهمها أنه أصبح مكلفاً أي مسئولاً عن كل أقواله وأفعاله، نعم قد لا يُسأل من جهة المجتمع، ولكنه حتماً سيُسألُ أمام اللَّهُ سبحانه وتعالى، فالنّبيّ ﷺ يقول: «لا تزولُ قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه وشبابه فيما أبلاه....»، ومن هذا الحديث تتضح لنا قيمة هذه الفترة وهي الشباب في حياة الإنسان فهذه الفترة وإن كانت محدودة وقصيرة ألا أنّ اللَّهُ سبحانه قد أفرد لها سؤالاً خاصاً بها يوم القيامة، مع أن اللَّهُ سبحانه وتعالى لو سأل عن العمر فقط دون أن يَسأل عن هذه الفترة بعينها، لكان بذلك قد سأل عنها، وما ذلك إلا لأهميتها الخاصة في عُمْرِ الإنسان وعند اللَّهُ، وذلك لما قيل عن هذه الفترة أنها بين فترتين مختلفتين لكنها جمعت أحسنهما، فقبل الشباب مرحلة الطفولة، وهي مرحلة قوة لا عقل فيها، وبعدها مرحلة الشيخوخة وهي مرحلة

عقل لا قوة فيها غالبا، أما فترة الشباب فقد جمعت أفضل ما في المرحلتين ففيها القوة والعقل، فهي مرحلة الصحة التي قال فيها الصادق المصدوق فيما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه: «نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس الصحة والفراغ» وروى البخاري ومسلم رحمهما الله عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمنَ منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»

فهذا الحديث الشريف يبين أنه ليس هناك أي استثناء في السؤال لأحد، فكل إنسان مهما اختلف عمره أو جنسه أو لونه سَيُسْأل يوم القيامة، ومما تقدم يتضح لنا أنه ليس من العقل ولا من الحكمة ولا من الشرع أن يقضي الشباب هذه الفترة التي سَيَسْأله الله عنها سؤالاً خاصاً في اللهو والمجون والعبث وعدم تحمل المسئولية.

أيها الشباب: أن الله سبحانه هو الذي خلق، وهو الذي كلّف، وهو الذي يعلم القدرة والطاقة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ فالله سبحانه يعلم بأن الشباب هم الذين سَيُغَيِّرون واقع أممهم إلى الأفضل، فهو سبحانه قد وضع فيهم بقدرته المؤهلات التي

تمكنهم من القيام بمهماتهم وواجباتهم التي خلقهم من أجلها، وعلى الوجه الأكمل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُون﴾ تُرى أهذا الأمر جديد على شباب أمة الإسلام؟ أم أن التغير غالباً ما يكون على يد الشباب؟

إخواني الشباب: الحق أن أمجاد المتفوقين، وأشواط الصاعدين، إنّما تستمد حركتها وبركتها من جهودهم أيام الشباب، واستغلالهم قدرتهم وإقدامهم على السبق والانطلاق في هذه الفترة التي يغفل عنها الناس، فالشباب هو أخصب مراحل العمر والواجب إغتنامه بحسن الإفادة وعظيم الإجادة، ومن ثم كان على المرء أن يقدم حساباً عن حياته كلها عامة، وحساباً خاصاً عن مرحلة الشباب، وأن اكتنفته من طرفيه المتباعدين الطفولة والشيخوخة إلا أنه يصعب وضع حدود زمنية لعهده السعيد.

فهناك رجال تظل فيهم قدرة الشباب، فهممهم قوية، ودماؤهم حارة، وأن وصل عمرهم الستين والسبعين، ونجدهم لا تنطفئ لهم بشاشة ولا تفتر لهم همة، أصحاب إرادة قوية، وعزيمة صادقة، لا تلين لهم قناة أبداً حتى مع تقدمهم في العمر، وهناك شباب نجدهم يَخْبُون وهم على أول الطريق حَبْوَاً لا ترى في عيونهم بريق أمل، ولا في خطواتهم عزماً، شاخت أفئدتهم وهم في مقتبل أعمارهم، وكأنهم رجال فوق الثمانين أو التسعين، لا أمل عندهم ولا طموح لديهم،

عاشوا في ربيع العمر لا زهر ولا ثمرة.

ولكن إخواني الشباب: ليست هذه هي النهاية وليست دعوة إلى اليأس ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

ولا دعوة للقنوط فإنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ونعوذ بالله من هذا أو ذاك.

وإذا ما نظرنا معاً إلى مكانة الشباب في الإسلام، نرى أنّ الإسلام قد أولى الشباب مكانةً عظيمةً؛ وذلك لأن نجاح الأمم يرجع لمقدار علو همم شبابها، وإلى مقدار آمالهم وأعمالهم. ولله دَرّ فتية من شباب الإسلام في ميادين البطولة صَلُوا حرّها، وحملوا عِبئَها، واندفعوا بحماستهم الملتهبة، وإقدامهم الرائع، يَخُطُّون مصارع الأعداء، ويُرسّخون لأمتهم صور التضحية والفداء، وهؤلاء وأمثالهم، يقول فيهم الشاعر الشاب الشهيد – نحتسبه عند الله كذلك – هاشم الرفاعي ولسان حالهم يقول:

ملكنا هذه الدنيا القرونـــــا ... وأخضعهـــا شباب خالدونـا

وسطّرنا صحائف من ضيـــاءٍ ... فمـا نسي الزمـان ولا نسينا

بنينا حقبة في الأرض ملكـــاً ... يُدَعّمُه شبـــــابٌ طامحونـا

شبابٌ ذللوا سبل المعـــــالي ... وما عَرفَوا سوى الإسلام دينا

تعـهدهم فأنبتهم نباتـــــــاً ... كريماً طاب في الدنيـــا غُصونا

إذا شهدوا الوغى كانوا كُمـــاة ... يَدُكُّـــــون المعاقل والحصونا

شـبابٌ لم تحطمه الليـــالي ... ولم يسلم إلى الخَصْمِ العرينا
وأن جَنّ المساء فلا تراهم ... مـن الإشفاق إلا ساجدينا
كذلك أخرج الإسلام قومي ... شباباً مخلصـــا حراً أمينـا
وعلمه الكرامة كيف تُبنـي ... فيأبي أن يُقَيّـــد أو يهونـا
وما فتئ الزمان يـدور حتى ... مضى بالمجـــد قومٌ أخرونـا
وأصبح لا يُرى في الركب قومي ... وقد عاشوا أئمـته سنينـا
وآلمني وآلـمَ كلَّ حـــــرٍ ... سؤال الدهـــر أين المسلمونا
تُرى هل يرجع الماضي فأنـي ... أذوب لذلك الماضـي حنينـا

نعم لقد صور هذا الشاعر الإسلامي (هاشم الرفاعي) ما كان فيه الشباب في القرون الأولى من الإسلام، في عصر النهضة الإسلامية، في عهد النّبيّ ﷺ والصحابة والتابعين من بعده، وعهود الخلافة الإسلامية أبّان قوتها وتمسكها بشرع اللهُ، وبين لجميع الشباب طريق النصر، وطريق العزة حقا، وطريق التمكين لأمتهم، فالشباب يا إخواني إنما هو تَوثُبُ رُوحٍ واستنارة فكر، وطفرة أمل، وصلابة عزيمة.

فترة الشباب في حياة الإنسان هي أحفل أطوار العمر بالمشاعر الحارة، والعواطف الغائرة، لكنها ليست عهد العافية المكتملة في البدن الناضج فقط، بل أنها كذلك عهد النزعات النفسية الجبانة، يمدها الخيال الخصيب، والرجاء البعيد وأن الأمم الناجحة المتفوقة

إنما تستغل في شبابها هذه القوى المذخورة، وتجندها في ميادين الحرب والسلم، وبهم تذلل الصعاب، وتقرب البعيد.[1]

هذه هي الفترة العُمْرية الحرجة التي تحتاج إلى رعاية تامة، ومن جميع المستويات، وذلك لأن الشباب هم عصب الأمم، وخاصة أمة الإسلام، وهذا نداء للشباب من الأستاذ الشيخ مصطفى صادق الرافعي، يقول لهم: «... يا شباب العرب أنهم يقولون أن في شباب العرب شيخوخة الهمم والعزائم، فالشباب يمتدون في حياة الأمم، وهم ينكمشون، وأن اللهو قد خَفّ بهم حتى ثقلت عليه حياة الجدّ، فأهملوا الممكنات فرجعت إليهم كالمستحيلات، وأن الهَزل قد هون عليهم كل صعبة فاختصروها، فتراهم إذا استهزءوا بالعدو في كلمة فكأنما هزموه في معركة كبرى»

ويقولون: «أن الأمر العظيم عند شباب العرب ألا يحملوا أبداً تبعة أمرعظيم، ويزعمون أنهم أسرع مقّلد للغرب في الرذائل خاصة، ولهذا جعله الغرب كالحيوان محصوراً في الطعام والشراب والملذات»

يا شباب العرب: مَنْ غيركم يجعل للنفوس قوانين صارمة، تكون المادة الأولي فيها أننا قَدِرْنا لأننا أَرَدْنَا؟ إن الشباب هو القوة، فالشمس لا تملأ النهار في آخره كما تملأه في أوله، وللشباب طبيعة أول إدراكها الثقة بالبقاء فأول صفاتها الإصرار على العزم.

(١) انظر صلاح الأمة في علو الهمة صـ ٥ جـ ٧ يتصرف د/ سيد حسين العفاني

يا شباب العرب لم يكن العسير يعسر على أسلافكم الأولين، تراهم وكأنهم في أيديهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها كل شيء، والسر في ذلك هو أنهم ارتفعوا فوق ضعف المخلوق، فصاروا عملا من أعمال الخالق، غلبوا على الدنيا لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر ومعنى الخوف والمعنى الأرضي، فحين يكون الفقر قلة المال يفتقر أكثر الناس، وتخذل القوة الإنسانية، وتهلك المواهب، ولكن حين يكون الفقر فقر العمل الطيب، عندها يستطيع كل إنسان أن يعمل ويغتني وتنبعث القوة وتعمل كل موهبة، وحين يكون الخوف من نقص الحياة وآلامها تصير كلمة الخوف مائة رذيلة غير الخوف، ولكن حين يكون من نقص الحياة الآخرة وعذابها، تصبح الكلمة قانون الفضائل أجمع، هكذا أخرج الدين إنسانه الكبير النفس، الذي لا يقول انهزمت نفسي.

يا شباب العرب كانت حكمة العرب قديماً، والتي كانوا يعملون لها وبها، أُطلب الموت تُوهب لك الحياة، والنفس إذا لم تخشَ الموت، كانت غريزة الكفاح أو غرائزها تعمل غريزة الكفاح أيها الشباب، هي التي جعلت الأسد لا يسمن، كما تسمن الشاة للذبح، فالقوة يا شباب الإسلام هي القوة التي تَقتُل أول ما تقْتُل فكرة الترف والتخنث، القوة التي تصنع لأصحابها في كلمة «نعم» معنى «نعم»، والقوة الصارمة النفاذة التي تقنع للأعداء في كلمة «لا» معنى «لا».

آهٍ.. آه لو علم الشباب أن روح هذا الدين ليست اعتقد أو لا تعتقد، ولكن افعل ولا تفعل وأن هذا هو أساس الاعتقاد، لو أيقن الشباب أن فرائض هذا الدين ليست إلا وسائل عملية لامتلاء النفس بمعاني التقديس لله رب العالمين، آهٍ.. آه لو فهم الشباب المسلم أنه ليس في الكون إلا هذه المعاني، لجعلت النفس فوق المادة، وفوق الحقوق، وفوق الذُّل، بل وفوق الموت نفسه.[1]

إن هذا الشباب والذي هذه صفته، جديرٌ بأن يرضى بذُلِّه وذُلِّ وطنه ودينه كما ترى، أقول وبصراحة أن الجمل إذا استنوق -أي جعل نفسه ناقة وهي الأنثى من الإبل- تخنث وَلان وخَضَع، ولكنه يحمل الأثقال.

وهؤلاء -أي مَن كان هذا شأنهم- تراهم إذا استنوقوا تخنثوا ولانوا وخضعوا ولكنهم أبَوا أن يحملوا، وصدق فيهم وأمثالهم قول المتلمس الشاعر أيضا:

ولا يُقيم على ضيمٍ يُراد بـــه إلَّا الأذلّان عَيْرُ الحيِّ والوَتَد
هذا على الخَسْفِ مربوطٌ برُمَّتِـه وذا يُشَجُّ فلا يَرثِي لـه أحـد

• • •

(١) انظر وحي القلم للشيخ مصطفي صادق الرافعي جـ ٢ صـ٢٣٠ بتصرف باختصار

مثال حيّ

ومن أهم الأمثلة الواقعية التي أخذت قلوب وعقول الشباب في عصرنا هذا (كرة القدم) محلية كانت أو دولية، والتي هي بحق مرض العصر كما سماها الكثير، انظروا إلى شباب همهم الأكبر من يفوز في المباراة القادمة، ومن الذي فاز في المباراة السابقة، عليها ينامون وفيها يصبحون، وبها وعنها يتحدثون، وفي سبيلها يجاهدون، ومن أجلها يخاصمون ويصالحون، ولها يوالون أو يعادون، أن سألت أحدهم عن الفريق الذي فاز قبل سنين عديدة؛ فعنده بذلك علم، ومن صاحب الهدف الذهبي في مبارة كذا –والتي مضى عليها من السنين ما مضى– فهو بذلك خبير، بل وفي أي ساعة كانت المباراة وبالليل كانت أو بالنهار إلى غير ذلك مما يتعلق بها.

ورحم الله الشاعر المسلم الذي صور ما يحدث في بلاد المسلمين من مهازل يندى لها الجبين عن أهم اهتمامات الشباب وأعظم أولوياتهم، في حين تسلب الأمم أراضيهم وممتلكاتهم وكل ما لديهم وأعز ما عندهم، فيصيرون بلا هوية، وقد حدث ما توقعه الأعداء، لكن بقي ولو قليل من الشباب لا يصل إليهم الأعداء، وهذا بفضل الله أولاً ثم بفضل العاملين للإسلام.

يقول الشاعر الإسلامي وليد قصاب في ديوانه يصور هذا:

أمضى الجسور إلى العلا بزماننا كرة القدمْ
تحتل صدر حياتنا وحديثها في كل فم
وهي الطريق لمن يُريدُ خَميلة فوق القممْ
أرأيت أشهرَ عندنا من لاعبي كرة القدمْ
أهم أشد توضحا أم نار برق في علمْ
لهم الجباية والعطاءُ بلا حدودٍ والكرمْ
لهم المزايا والهبات وما تجود به الهممْ

كرة القدم:

الناس تسهر عندها مبهورة حتى الصباحْ
وإذا دعا داعي الجهاد وقال حي على الفلاحْ
غَطّ الجميعُ بنومهم فوز الفريق هو الفلاحْ
فوز الفريق هو السبيل إلى الحضارة والفلاحْ

كرة القدم:

صارت أجل أمورنا وحياتنا هذا الزمنْ
ما عاد يشغلنا سواها في الخفاء وفي العلنْ
أَكَلَتْ عقول شبابنا ويهود تجتاحُ المدنْ
واللاعب المقدام تصنع رجله مجد الوطنْ

كرة القدم:

عجبا لآلاف الشبـــــاب فأنهـــــم أهـل الشمـمْ
صُرفوا إلى الكـــرة الحقيرةِ فاستبيـــــح لهـم غنـمْ
دخل العدو بـلادهـــم وضجيجهـــا زرع الصممْ
أيسجل التاريــخ أنـــــا أمـــة مستهتـــــرة
شهدت سقوط بلادهـــا وعيونهـــا فوق الكـــرة[1]

تُرى هؤلاء هم الذين سينصرون الإسلام؟ أم أنهم هم سبب الذلة التي فيها المسلمون، انساقوا وراء الشهوات، فحلت عليهم العقوبة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2] ومصداقا لقوله ﷺ: «أن العبد لَيُحْرمُ الرزق بالذنب يصيبه» فهلّا شباباً يقومون بهذه المهمات الصعبة، تُرى هل هناك شباب سيقومون برفع الذُّل والهوان عن الأمة؟ نعم وألف نعم هذه الأمة أمة وَلُودْ، ولكن كما قال النّبيّ ﷺ: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، رجوعنا لشرعنا وإسلامنا، رجوعنا إلى الكتاب والسنة، رجوعنا لمصدر عزتنا وكرامتنا، رجوعنا لقدوتنا وتاريخنا المشرق وإلى سيرة سلفنا الصالح.

• • •

(١) من قصيدة كرة القدم من ديوان صور من بلادي د / وليد قصاب صـ ١٠١ وبعدها نقلاً عن صلاح الأمة

(٢) سورة الأنفال – الآية ٣٥

القرآن والسنة يوضحان

القرآن والسنة يوضحان خطورة هذه المرحلة، فالقرآن يعطينا صورًا حية عن الشباب في القديم والحديث، فمثلاً ها هم الأنبياء جميعا عليهم صلوات الله كانوا يُبعثون إلى أقوامهم عند سن الأربعين، أي بعد نُضج عقولهم، وحتى لا يُتهمون بما يُنقص من أقدارهم في نظر من بُعثوا إليهم، وانظروا إلى القرآن وهو يصور سيدنا موسى عليه السلام قُبيل بعثته إلى فرعون وقومه، وعندما كان في إجارة وتعاقد مع الرجل الصالح في مدين يقول الله عنه وعن قوته وحماسه: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[1]

فانظروا إليه من وكزة واحدة قضى عليه، ولم يكن يقصد قتله، نعم ولكن قوته الجسدية مع القوة الإيمانية التي هي المطلوب الأول.

أليس النّبيّ محمد ﷺ هو الذي قال فيه على بن أبي طالب والصحابة: «كنا إذا اشتد الوطيس وحميت المعركة اتقينا برسول الله ﷺ فلم يكن أحد أقرب إلى العدو منه، أحد الصحابة

(١) سورة القصص – الآية ١٥

يقول سمعنا ذات ليلة جلبة ببعض أطراف المدينة فقمنا وأسرعنا لنرى ما هذه الجلبة فبينما نحن ذاهبون إليها إذ نحن برسول ﷺ راجع في الطريق وهو يقول لنا لا تراعوا لا تراعوا».

• • •

القرآن والشباب

ذكر ﷻ في كتابه عن طالوت؛ وهو شاب من شباب بني إسرائيل الذين أراد ﷻ لهم أن يقاتلوا العمالقة أو الجبارين، فَمَن يكون هذا القائد على بني إسرائيل لقتال هؤلاء العمالقة، وهم يطلبون أن يستردوا ما سُلب منهم على يد هؤلاء العمالقة المغتصبين، وهم يقولون لنبيهم: ابعث لنا ملكا نقاتل معه في سبيل ﷻ، وهم يقولون له ولماذا لا نقاتل ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟ وانظروا إخواني في ﷻ إلى وصف القرآن الكريم للقائد الذي ستكون له القيادة عليهم، إذ يقول فيه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١)

واسمع إلى هذا الوصف القرآني عن هذا القائد الشاب، وهذا ليس بنبي ولكنه رجل عادي من عوام البشر ولكن ﷻ اصطفاه وزاده شيئين مهمين: الأول العلم والخبرة، وحسن الإدارة والثاني هوقوة الجسم مع قوة العقيدة؛ ولهذا فلا تعصف به الأهواء ولا

(١) سورة البقرة – الآية ٢٤٧

تجره العواطف الموجودة عند بني إسرائيل، بسطة في الجسم وهي القوة الجسدية، والتي يحتاج إليها القائد، إنه قائد شاب قدوة للجنود، كله قوة وفتوة يحتاج إليها في المعركة التي ستدور بينهم وبين الأعداء.

في نهاية القصة الكريمة أيضاً يعطينا ﷻ مثلا آخر وهو سيدنا داوود هو فتى صغير يرعى الغنم يمر به جيش طالوت، فما كان من هذا الشاب إلا أنه التحق بهم ليجاهد في سبيل ﷻ وليرفع كلمة التوحيد، ولما برز طالوت لقتال جالوت وجنوده قام هذا الشاب ليسجل أكبر واقعة في التاريخ، والتي سجلها القرآن عنه فقال ﷻ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ • فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]

هذا هو داوود الشاب الصغير، يتحدث القرآن الكريم عنه في هذا السن الصغير المبكر إذن فالشباب هم سر نهضة أي أمة من الأمم قديما أو حديثا، في أمة الإسلام وفي أي أمة من الأمم.

وقال سبحانه وتعالى عن سيدنا يحيَى عليه السلام: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[2]

فالله سبحانه هو الذي سماه أولاً ولم يَكِل تسميته لأبيه وهذه

(١) سورة البقرة – الآيات ١٥١-١٥٢

(٢) سورة مريم - الآية ٧

منقبة عظيمة لسيدنا يحيى، وما أظن أن أحداً من البشر حازها سواه كما قال ابن عباس: لم يُسمّ يحيى قبله غيره، ومن تولى ﷲ تسميته صنعه على عينه. ثم قال سبحانه لسيدنا يحيَى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[1].

وانظروا إلى سيدنا يحيَى أتاه ﷲ الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الفضائل، والاجتهاد في الخير، وهو شاب صغير، بل في أول هذه المرحلة مرحلة ما بعد الصَّبوة أو ما بعد مرحلة الطفولة ولكن أتاه ﷲ الحُكم، أي النبوة، كما قال أبو حيان الحُكم هو النبوة فأتاه ﷲ إياها وهو صبيٌ كي يستقبل بها شبابه، وهو في مرحلة الفتوة فكان في شبابه فذّاً كما كان في اسمه وميلاده فذّا، فالحِكمة تأتي متأخرة ولكن يحيَى قد زوده ﷲ بها صبياً، ولهذا يُروي أن الصبيان قالوا ليحيى اذهب بنا نلعب، فرد عليهم قائلا: ما لِلَّعب خُلقنا، فصلى ﷲ على سيدنا يحيَى وعن الأنبياء أجمعين.

وكما أخبر القرآن عن سيدنا يحيى أخبر عن غيره ممن ليسوا بأنبياء ولكنهم دعاة إلى ﷲ في قومهم، أخبرنا عن أصحاب الكهف فيقول سبحانه: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[2]

ثم بعدها يوضح قصتهم ويقصها على نبيه ومصطفاه محمد ﷺ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ

(١) سورة مريم - الآية ١٢

(٢) سورة الكهف - الآية ١٠

هُـدًى﴾[1]

فهـؤلاء كانوا في سن الشباب، وقال عنهم ربهم أنهم فتية، أي في زمن الفتوة ولكنهم تحمّلوا مسئوليتهم في دعوة أُمتهم إلى اللَّهُ، ولحسن فعلهم ولحب اللَّهُ لهم وهم في ريعان الشباب، أفرد لهم سورة من سور القرآن سُميت باسمهم سورة (الفِتيَةُ) أو تسمت باسم المكان الذي دخلوه (الْكَهْفِ) وأفرد لهم في نفس السورة أكثر من ستة عشر آية من هذه السورة المباركة، وجعل الإسلام ونبي الإسلام محمدﷺ من السُّنة أن نقرأ هذه السورة كل يوم جمعة، وبين فضلها لما فيها من العظات والعبر، وأنها تتكلم عن الانتقال من الدعوة والحظر عليها، إلى الدولة ومرحلة التمكين لدينه سبحانه، ثم زاد في الفضل حينما قرر النّبيّ ﷺ أن من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من فتنة الدجال، ونهاية الآيات العشر هي مقدمة هذه القصة الرائعة وهي تُذكر النّبيّ ﷺ وأمته، على هيئة سؤال مطروح عليه وأمته ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[2]

أتعجب من هؤلاء الشباب في الزمن الماضي أتظن أنهم كانوا من آياتنا عجباً؟ ثم يجيب المولى على نفسه أنهم فتية -أي شباب- آمنوا بربهم وأخلصوا له في إيمانهم به ودعوتهم إليه، ثم يذكر اللَّهُ ما فعلوه ويوضح أن هذه الفترة من العمر كانت سبباً جعلهم

(١) سورة الكهف - الآية ١٣

(٢) سورة الكهف - الآية ٩

يقدرون على أن يقوموا بفعل لم يستطع أن يفعله غيرهم، أنهم شباب آمن بالله ودعى الناس إلى دينه فزاده ﷻ هداية، حتى أواخر الآيات من سورة الكهف تبين جزاء المؤمنين سواء هؤلاء الفتية أم غيرهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[1]

وأيّ عملٍ صالح هذا الذي قام به أولئك الفتية الصالحين!! أمّا آخر آية في السورة فتبين إنما هذا كان وحي من ﷻ سبحانه، والنّبيّ بشر فعليكم بالعمل الصالح وشرطا قبوله: أن يكون هذا العمل الصالح موافقاً للسنة، والثاني أن يكون هذا العمل خالصا لله تعالى، وأيُّ إخلاص كان عند هؤلاء الشباب! وأي عمل صالح كان عندهم! حتى خلد ﷻ ذكرهم إلى هذه الدرجة الكبيرة؟ ذلك لأنهم تحملوا مسئولية أمتهم، فلما لم يجدوا منهم أي استجابة نجوا بأنفسهم ولجئوا إلى ﷻ بعد أن بذلوا الوسع واستنفذوا الطاقة، هذا هو الشباب يا شباب المسلمين

تشبهوا بهم إن لم تكونوا مثلهم أن التشبـــــه بالرجال فلاح

وهذا سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: يُفرد ﷻ له سورة في القرآن سميت باسمه، وكان شابا في ريعان شبابه حينما دعته امرأة العزيز، ولكنه كان من عباد ﷻ المخلصين، ولما دخل السجن كان شاباً فاستطاع أن يتحمل قسوة السجن

(١) سورة الكهف - الآية ١٠٧

ولم يعوقه سجنه عن دعوته إلى اللَّهُ تعالى، ولما خرج وتولى خزانة مصر وقال أني حفيظ عليم كان شابا، وهكذا كان الأنبياء تأتيهم الرسالة وهم شباب حتى يقوموا بأعبائها، ويقدرون على تكاليفها، وهكذا يتحدث القرآن عن هذه الفترة أنها هي فترة القيام بالتكاليف والمسئوليات والأعباء لأنها فترة جمعت بين العقل والقوة، وهي التي قال اللَّهُ فيها في محكم التنزيل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾(١)

وهكذا بين القرآن خطورة هذه المرحلة من عمر الإنسان إذا لم يستخدمها الإنسان في طاعة اللَّهُ فإنها ستستخدم حتما في معصيته، فسبحانه هو العالم بخلقه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٢)

هذا هو الشباب يا شباب المسلمين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣)

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾(٤)

---

(١) سورة الروم - الآية ٥٤

(٢) سورة المُلك - الآية ١٤

(٣) سورة يوسف - الآية ١١١

(٤) سورة طه - الآية ٩٩

السنة تُقرّر

فقد وَضَّحَت وفصّلت وقررت خطورة هذه المرحلة العمْرية من الإنسان فيقول النّبيّ ﷺ: فيما رواه ابن مسعود وابن عمر وغيرهما «لا تزولُ قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وماذا عمل فيما علم»(١)

ولله در حفصة بنت سيرين حين قالت: «يا معشر الشباب اعملوا فإني رأيت العمل في الشباب»، وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فنظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»(٢)

قال النّبيّ ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»(٣)

وهاتان النعمتان موجودتان عند الشباب.

فهذه الأحاديث وغيرها تبين وبوضوح أنه ليس هناك استثناء في

(١) رواه البخاري ومسلم في الصحيح

(٢) رواه الترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع

(٣) رواه البخاري

السؤال من اللهُ للعبد فالكل مهما اختلف عمره أو جنسه أو لونه سيسأله اللهُ تعالى يوم القيامة عن كل صغيرة وكبيرة.
ثم يقول النّبيّ ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فمن لم يستطع فعليه بالصوم فأنه له وجاء» أي وقاية، وما ذلك النداء إلا لأن الإسلام يريد الحفاظ على الشباب؛ حتى تحتفظ الأمة بكيانها، ومقدراتها، فالشباب هم أعظم وأهم ما تملك الأمة من مجد وعلوّ، فإن كان شبابها صالحاً فالأمة بخير، وأن كان فاسداً ساءت الأحوال وفسدت الأمة بفساد شبابها، كما نرى في واقعنا الذي لا يخفي على كلّ ذي لُبَ، ثم في حديثٍ آخر يقول النّبيّ ﷺ: «إن اللهُ يعجب من شاب ليست له صبوة»، وفي آخر يقول: «سبعة يظلهم في ظله، يوم لا ظل إلا ظله»، وذكر منهم: «وشاب نشأ في عبادة اللهُ..»
كل هذه الأحاديث وغيرها الكثير والكثير توجب علينا الاهتمام بالشباب وتبين رعاية الإسلام له، ولكن معاً لنرى الشباب في الإسلام وحضارة الإسلام التي حفلت بنماذج قديماً وحديثاً من الشباب الذين أناروا العالم بعقيدتهم، وعلو همتهم، ونبل غايتهم، إنه الإسلام الذي صنع هؤلاء الشباب وتعالوا بنا لنعيش معهم حتى نستفيد منهم بما كانوا عليه من علو الهمة في جميع المجالات.

• • •

أمل وطموح

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[1]

كلمة لابد منها: إخواني في الله إن ما نتكلم فيه وبه ليس حديثا يفترى، ولا أساطير تقال، ولا قصص نتسَلى بها، إنما هو الحديث والقَصَص الذي ترويه كتب التاريخ وكتب السيرة الموثقة عن أنباء أعظم وأفضل جيل عُرف في دنيا العقيدة والإيمان على وجه الأرض.

وذلك لأن التاريخ الإنساني بطوله وعرضه، قديمه وحديثه، لم يشهد أبدا من التوثيق والتحري للحقيقة، ما شهدته أو حظيت به تلكم الحِقبة من تاريخ الإسلام ورجاله السابقين، وذلك لأنه قد توفر لها ما لم يتوفر لغيرها من الأمم على وجه الأرض، وذلك من حيث العكوف على دراستها وتتبع رجالها وأسانيدها من جهد بشري خارق حتى صارت السيرة الذاتية للصحابة والرسول ﷺ، من مفاخر أمة الإسلام.

لذلك سنرى في هذه النماذج، من العظمة الباهرة التي بدت من فرط إعجازها كالأساطير، ولكنها حقائق، تُشَكّل كل ما كان

(١) سورة الأحزاب - الآية ٢٣

للنبي ﷺ وأصحابه، ولكنها تسمو وتتألق وتعظُم بقدر ما بذل أصحابها في سبيل نصرة عقيدتهم، وأيضاً لأن التاريخ على مداره لم يشهد رجالاً عقدوا عزمهم، وصححوا نواياهم لغاية كبرى بلغت الغاية في العدالة والسُمُوّ من غاية نصرة الإسلام، ومن ثَم تراهم قد بذلوا لهذه الغاية حياتهم، ولكن على نَسَق تناهى في التضحية والعطاء، كما أن القارئ لسيرة هؤلاء يشهد في أولئك الرجال الأفذاذ من أصحاب المصطفى ما يكون عبرة للأجيال بعدهم ليسيروا عليه في تحقيق الخلافة الإسلامية الراشدة في الأرض.

يا شباب الإسلام، لقد جاء هؤلاء الأطهار الأفذاذ بعقيدتهم وبما يحملونه في قلوبهم من عز للبلاد والعباد، ولسان حالهم يقول: «لقد ابتعثنا اللَّهُ لنخرج من شاء من عبادة العباد، إلى عبادة ربِّ الأرض والسموات ومن جُور الأديان إلى سعة الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة...»، نعم لقد جاءوا بعز الإسلام ولسان حالهم يقول: «لقد أعزنا اللَّهُ بالإسلام وإن ابتغينا العزة في غير الإسلام أذلنا اللَّهُ...، نعم لقد كانوا أعزاء، وكانت العزة في عقيدتهم. كما كان الإسلام في قلوبهم. وهم يقولون في كل أحوالهم: «نحن في عزة لو علمها الملوك وأبناء الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف»، كانوا على الحقيقة عقيدتهم هي أغلى ما يملكون، ومن أجلها يضحون وفي سبيلها يموتون، فهم كما يقول القائل:

فالله في قلبي وقلبي في يــدي ربـــــي وربي ناصري ومعيني
سأعيش معتصماً بحبل عقيدتي وأموت مبتـسماً ليحيا ديني

نعم إخواني الشباب لقد جاء أجدادكم في الموعد المنتظر، فحين كانت البشرية في شقائها وظلماتها التي كانت ترزح فيه وتحته، جاء من اختارهم ﷲ لإنقاذ البشرية، لكن كيف وصلوا إلى ما وصلوا إليه ؟ كيف زلزلوا عروش الإمبراطورية الرومانية، والفارسية، وحولوهم إلى مقاطعات إسلامية، كيف استطاعوا أن يضيئوا ضمير البشرية جميعاً بحقيقة التوحيد ونور الإسلام؟ كيف حكّموا القرآن وجعلوه دستورا للعالم في الأرض جميعا؟
لذا عندما تقرأ قَصصَ المهتدين والعابدين تجدُ أن نقطةَ التحوُّل في حياتهم كانت إمَّا بسبب موت قريبٍ، أو فجيعة في عزيز، أو كِبَر في السنِّ، أو مَرض زعزع كيانهم ؛ حتى أفاقوا إلى رشدِهم. قصارى القول أنهم استفادوا من واقعهم والبيئة المحيطة بهم إيجاباً أو سلباً فالسعيد مَن وُعظ بغيره.

هذا الكلام أضعه بين أيدي شبابنا وأخص منهم مَن وضحت أمامهم الرؤية فوَعُوها وانتبهوا لها، وأدركوا أن ابتعاد الأمة عن إسلامها العظيم عقيدةً ومنهجاً للحياة، هو السبب الحقيقي في كل ما يحل بأمتهم من هوان، وما يقع عليها من مصائب وتشتت وتخبط في ظلمات التيه والبُعد عن الطريق المستقيم، والوقوع في

متاهات العقائد الأرضية المستوردة، والأنظمة الفاسدة؛ وأدركوا حقيقة أن العودة إلى الإسلام والالتزام الصادق بتعاليمه، والاستقامة الواعية الصحيحة على دربه، وجعله واقعاً عملياً وسلوكاً موجوداً في تصرفاتهم اليومية وعلى مدار حياتهم؛ هو الطريق الوحيد للخروج بالأمة الإسلامية مما هي فيه من ذُلّ وهوان، إلى رحاب العزة والظفر والوحدة والاطمئنان.

ولكن العودة إلى رحاب الإسلام وعزته، رجاءٌ مطلوب وأُمْنية غالية، ولكنها تحتاج إلى عمل دؤوب، وعزم صلب، وإرادة قوية، وقلوب صادقة مؤمنة، واتصال بالله تعالى وعمل بكتابه وسنة نبيه في نفسك أولاً ثم المجتمع من حولك، وباختصار: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم، تقم على أرضكم».

لنعلم جميعاً أيها الشباب أن السير في طريق عودة الإسلام على حقيقته المطلوبة والتي كانت في عهده الأول؛ إنما هي مسيرة جهادية وطريقٌ شاق وطويل، إنها درب محفوف بالمخاطر والمعوقات، وتكتنفه المصاعب والأهوال من كل جانب، وعلى امتداد هذا الطريق صنوف لا تكاد أن تحصى من المتاعب والمصاعب مما تنوء بحمله الجبال الرواسي.

ولقد قدمت دعوة الإسلام -ومازالت تُقدّم وستظل تُقدّم ما دامت السماوات والأرض- على امتداد العصور والأزمان، وتحت كل الظروف المتقلبة من عسر أو يسر، الآلاف تلو الآلاف من

النماذج البطولية، مما يؤكد للناس جميعا بأن دعوة الإسلام سائرة على الدرب الصحيح من أجل العودة بالأمة إلى الجادة وإلى الطريق المستقيم، وستظل ماضية رغم كل المعوقات والمخاطر.

وحتى نعلم إخواني الشباب أن دعوة الإسلام لا ترتبط بأشخاص ولا أماكن ولا عصور معينة ولكنها دعوة يختار اللهُ لها من سار فيها، ومن يسير فيها، وإلى أي مدىً سيسير فيها، لأنها دعوة اللهُ تعالى.

فنسأل اللهُ الثبات على دينه حتى الممات أنه وليّ ذلك والقادر عليه.

• • •

نماذج

الحِبُّ ابن الحِبّ

أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه.

ما أعظم مكانة الشباب في الإسلام والمتابع لأحداث التاريخ الإسلامي، وسير السابقين من أمثال هؤلاء الأصحاب ومن تبعهم، يجد أن معظم حركات التغيير في تاريخ أمتنا الإسلامية إنما كانت -وبلا مبالغة- على يد الشباب، وليس هذا من قبيل المصادفة العجيبة ولكن هي سنة مطردة، وحدث متكرر، مع أمثال هذه النخبة المباركة ونراجع معاً وسريعاً تاريخنا الإسلامي المليء بالشباب المتميز، ولنا أن نسأل ونتساءل من الذين توجه إليهم الرسول عندما نزلت عليه الرسالة؟ ثم من هم الذين اعتمد عليهم الرسول ﷺ في بادئ الأمر على أنهم هم الذين سيغيرون نظام الكون كله إلى يوم القيامة؟ أو مَن هم الذين فتحوا البلاد وتحملوا تبعات هذا الدين؟

أو مَن هم الذين وقفوا في وجوه التتار والصليبيين على مدار التاريخ؟ الإجابة اقرؤوا التاريخ الإسلامي المشَرِّف المشرق، وراجعوا قصصهم التي هي من صُنع الإسلام، إذ الإيمان بالله يصنع

الأعاجيب.

ومع الحبّ ابن الحب هذا الشاب الذي كان أُمَّة وحده والذي كان من أفراد الإسلام القلائل الذين جمعوا بين القيادة والجندية معا، حتى وَلّاهُ النّبيّ ﷺ قيادة جيش المسلمين فصار القائد العام لجيش المسلمين في حرب الروم، وكان في الجيش أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم، إنه الشاب العظيم أسامة بن زيد.

فمن هو أسامة بن زيد؟

والده هو زيد بن حارثة الذي كان غلاماً لخديجة بنت خويلد والتي أهدته إلى زوجها الكريم بعد ذلك سيدنا محمد ﷺ وتربي والد أسامة في بيت النّبيّ، وعاش معه زيد رضي الله عنه عيشةً كان يحلم بها كل الصحابة ويتمنونها، ولِحُبّ النّبيّ له، زَوَّجَه لزينب بنت جحش رضي الله عنها، ثم زوّجه لأم أيمن فأنجبت له أسامة، وهي حاضنة النبي ﷺ، وهي إحدى المؤمنات المجاهدات اللاتي شاركن في المعارك الإسلامية مع رسول الله، فقد شهدت أُحدًا، وكانت تسقي المسلمين، وتداوي الجَرْحَى، وشهدت غزوة خيبر.

وقد روت أم أيمن بعضًا من أحاديث رسول الله، قال ابن حجر في الإصابة: كان النبي ﷺ يقول عنها: «هذه بقية أهل بيتي» هذه المرأة المؤمنة التقية الورعة المجاهدة كانت أحد المحاضن التربوية التي تخرَّج فيها أسامة بن زيد، فقد كانت بركة على سيدنا زيد بن حارثة ثم رزقهما الله بهذا الشاب العظيم البطل

الشاب أسامة بن زيد بعد زواجهما بعام واحد، ولم تقف رعاية اللهُ لهذا الشاب عند هذا الحد، بل كان النّبيّ يترد على بيت مولاه ومُتبنّاة زيد بن حارثة وكان يُقبل أسامة الطفل الصغير[1] ويهدهده، بل وكان يضعه على فخذه ﷺ ويضع الحسن والحسين على الفخذ الأخر، ونَما هذا الشاب وترعرع في بيت رسول اللهُ، وهكذا كانت النشأة الصالحة لهذا الطفل سبباً كبيراً في بطولته فيما بعد، وإذا طاب أصل المرء طابت فروعه كما قيل.

بطل دون العاشرة

ذات ليلة من الليالي وأسامة يسمع حواراً بين أبويه الكريمين، وكان عمره آنذاك قد قارب العاشرة، هذا الحوار كان عن موقف المشركين من النّبيّ ﷺ وأصحابه، ودار الحديث وهو يسمع الحديث بقلبه قبل أذنيه، حيث سمع أبوه يقول أن المشركين حوالي تسعمائة رجل أو يزيدون قليلا وزعيمهم أبو جهل قد تجمعوا عند بئر بدر، وأن النّبيّ ﷺ سيلقي هؤلاء المشركين ومعه ثلاثمائة من أصحابه، فما كان من سيدنا أسامة بعد أن سمع هذا الحوار حتى تاقت روحه إلى الخروج مع أبيه والاشتراك في الحرب معه ضد المشركين، لكن الأبوين يرُدانه رداً جميلاً ويقولان له كلاماً تربوياً تحتاج إليه كل أسرة من أسر المسلمين اليوم في تربية أبنائهم،

(١) انظر أسامة بن زيد صـ ١١ بتصرف ، وانظر أصحاب الرسول لمحمود المصري أبو عمار.

حيث يقولان له: «يا بُني إنك الآن ما زلت صغير السن، فتدرب من الآن على الجهاد لأن طريق الجهاد طويل وسوف تجاهد ما وسعك الجهاد».

ولكن هذا الكلام لم يلقَ استجابة عند هذا الشاب صغير السن، ولكنهما مازالا به حتى أقنعاه، وانظروا إخواني الشباب، إلى أسامة بن زيد عندما رجع والده من غزوة بدر، تلقاه خارج البيت بإشراقة وجهه، وهو يستمع إليه عما دار بين المسلمين والكفار في المعركة، وهو يسأل بشغف عن الهزيمة المنكرة التي أحلت بالمشركين، وكيف قتل أبو جهل؟ ومن الذي تشرف بقتله؟ فيخبره والده بمن الذي قتله أنهما معوذ ومعاذ ابني عفراء شابان صغيرا السن!

وكيف قتلاه؟ ألم أكن أنا مثلهما؟ لماذا منعتماني من الخروج للجهاد؟ ولم يكد يمر الكلام على مسامع الشاب الصغير، حتى تاقت نفسه إلى الجهاد في سبيل ﷲ، ثم مرت الشهور سريعة، حتى دَبَّر الأعداء ممن قُتِل آباؤهم وإخوانهم في بدر، وخططوا ليثأروا لقتلاهم الذين قتلوا في بدر، ولما سمع النّبيّ ﷺ بما دَبّره المشركون، قام في مواجهتهم ووضع الخطة واستشار الصحابة فكانت غزوة أُحد، ولما علم الشاب الصغير أسامة بن زيد، صمم بكل قوته على الاشتراك في هذه الغزوة، وحاول الأبوين إقناعه ولكن دون جدوى إذ كانت الحماسة في نفس هذا الشاب قد بلغت مداها فأعطياه سيفاً ودرعاً وتركاه ينطلق في الميدان

وسنُّه يومها كان احد عشر عاماً ولكنها النفس التواقة للجهاد في سبيل ﷲ، والتي تربت على حب الجهاد لإعلاء شرع ﷲ، ولما رأى أفراد جيش المسلمين أسامة بن زيد وصِغر سنه وقتها، أشفقوا عليه وأقنعوه بالرجوع هذه المرة وأن يكون جنديا من جنود المسلمين في المرة القادمة، رجع ولكنه يتحسّر ويتميز غيظاً على معركة مع رسول ﷲ تفوته، ثم تمُرّ الأيام والشهور بل السنين، وخرج والد أسامة مجاهدا في سرية مؤتة، وقاتل في سبيل ﷲ قتال الأبطال حتى نال ما سعى إليه هو وإخوانه من الصحابة الأبرار في هذه السرية ألا وهي الشهادة في سبيل ﷲ، ووصل خبر الشهادة إلى مسامع هذا الشاب الصغير أسامة بن زيد، فتلقاه بصبر واحتساب، حزن قلبه، ودمعت عيناه كما حزن النّبيّ ﷺ كذلك على الشهداء من قبل، ثم جاءت السنة الثامنة من الهجرة لتفتح مكة، وكان جنود المسلمين يبلغ تعدادهم عشرة ألاف مقاتل، وكان القائد العام لهذا الجيش هو النّبيّ ﷺ ولكن النّبيّ أراد أن يُعَلِّم المسلمين جميعاً على مدار التاريخ كيف يربوا قادةً شباباً عظماء، فماذا فعل ﷺ؟ فعل شيئا مُهماً، وهو أن النّبيّ وهو القائد العام كان يركب على بغلته وأردف خلفه هو سيدنا أسامة بن زيد الشاب الصغير، والذي سيكون له شأن عظيم فيما بعد، أنها تربية على الجهاد في سبيل ﷲ وعلى تحمل المصاعب والمعوقات في طريق الدعوة إلى ﷲ فيا لها من تربية، وموقف يا

له من موقف تتمثل فيه عظمة الإسلام، الذي يسوى بين القائد الأعلى وبين شاب ليس من ذوي الحسب والنسب -بميزان أهل الدنيا-، وأن دلّ هذا فإنما يدل على عظمة ومقدار الشباب في الإسلام وعند نبي الإسلام، ثم يرفع النّبيّ ﷺ ثانيا من مقدار الشباب عامة وذلك عندما يخص أسامة بن زيد بالدخول معه دون غيره، إذ يدخل النّبيّ الكعبة ليصلي فيها ركعتين ومن الذين دخلوا معه؟

لم يدخل معه إلا اثنين هُما أسامة بن زيد بن حارثة ليرفع بذلك من قيمة الشباب في الإسلام، والثاني بلال بن رباح الحبشي ليمحو بذلك مبدأ العنصرية من الإسلام، فلا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

أرأيتم إخواني الشباب كيف رفع الإسلام من قيمة الشباب؟ وكيف رباهم على الجهاد في سبيل اللّٰهُ؟

ثم تأتي الاستخبارات الإسلامية بأن الروم يتجمعون لهاجموا المدينة المنورة فيقرر النّبيّ ﷺ أن يخرج بنفسه على رأس جيش لمحاربة الروم حتى يقضى على هيبتهم ويجعلهم لا يفكرون ثانية في غزو المسلمين، ومن أجل أن يُؤَمِّن حدود الدولة الإسلامية من ناحية الشام، فكانت غزوة تبوك في رجب من السنة التاسعة، ثم تتوالى الشهور وهذا الشاب يتوق إلى الجهاد في سبيل اللّٰهُ فتأتى غزوة حنين بعد فتح مكة بقليل ويأتي الاختبار لهذا الشاب المجاهد

الصادق أسامة بن زيد عندما تقهقر بعض المسلمين على أثر مفاجأة الأعداء لهم، والتفت النّبيّ فوجد بعض المسلمين قد فروا من حوله إلا قليلا وراح النّبيّ ينادي بصوت يهز الوادي وهو يقول: إلى أين أيها الناس.. هلمُّوا إليَّ.. أنا رسول اللَّهُ.. أنا محمد بن عبد اللَّهُ.. أنا النّبيّ لا كذب.. أنا بن عبد المطلب.

ثم يلتفت النّبيّ من حوله فمن الذين وجدهم النّبيّ حوله؟ لقد رأي من حوله أحد عشر رجلاً على رأسهم الشاب عليّ بن أبي طالب، وأسامة بن زيد، وعمر الفاروق، وأبو بكر الصديق، والذي يعنينا هنا هو موقف البطل أسامة بن زيد الذي كان عمره آنذاك لا يتجاوز ستة عشر سنة وكانت هذه أول غزوة يخرج ويقاتل فيها سيدنا أسامة مع النّبيّ ﷺ، ويشاء اللَّهُ سبحانه وتعالى أن يكون اختبار قاسي للمؤمنين ويثبُت هذا الشاب أسامة أمام مشاهد الموت وأشباح الخطر.

كان هذا الموقف الرائع له أثر عظيم في نفس النّبيّ نحو الشاب أسامة ومن ثم رفع مكانته عند النّبيّ وأصحابه، مما أكد للنبي وكثير من أصحابه أن أسامة جدير بأن يكون قائداً في هذه السن المبكرة؛ وذلك لأنه يملك كل طاقات ومواهب القائد الشجاع، كما أنه يستطيع في اللحظات الحرجة أن يظل ثابتاً قوي البأس، لا يَضْعُف له عزم، ولا تَلين له قناة، ثم ما أن رجع النّبيّ والمسلمون من هذه الغزوة منتصرين حتى أضمر النّبيّ أمراً في صدره حتى يحين

موعده، ألا وهو تعيين أسامه بن زيد قائداً عاماً لجيش المسلمين في إحدى الغزوات القادمة ودارت بعض الخواطر في ذهن النّبيّ ﷺ كانت كبرياء دولة الروم قد جعلتها تأبي حق الحياة على من آمن بالله ورسوله، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل في الإسلام، كما فعلت بفَرْوَة بن عمرو الجُذَامِي، الذي كان والياً على مَعَان من قِبل الروم، ونظراً لهذه الجراءة والغطرسة، أخذ الرسول يجهز جيشاً كبيراً في صفر سنة ١١هـ، فما لبث أن فكر في غزو بلاد الروم المجاورة للدولة الإسلامية.

كما أنه لم ينسى ما حدث لبعض الصحابة في سرية مؤتة واستشهاد جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحه، وزيد بن حارثة والد أسامه، فأعلن النّبيّ ﷺ عن نيته، وأنه يريد غزو الروم، وأخذ الصحابة في الحضور مجَهَّزين من كل حَدب وصَوب، وكان أسامة من الذين يجهُّزون أدوات القتال؛ لأنه سيشفي قلبه من أعداء الإسلام ومن قتَلَة أبيه، وبينما هو كذلك إذ أتاه رسول من عند رسول الله ﷺ بأن يحضر لمقابلته، فما كان من أسامة إلا أن أسرع الخُطَى إلى بيت النّبيّ فأجلسه النّبيّ بجواره، ثم مال عليه وقبَّله قُبلة حانية على جبينه وقال له: «يا أسامة سر على بركة الله إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل فإني قد ولَّيتك هذا الجيش، فأَغِرْ صباحاً على أهل أبنى، وأسرع السير تسبق الأخبار، فأن أظفرك الله فأقلل المكث فيهم، وخذ معك الأدلّاء، وقدم

العيون والطلائع أمامك»، فما أن سمع أسامة هذا الكلام، لم يستطع أن يتكلم بكلمة واحدة من المفاجأة العظيمة، لقد كان هذا الشاب كل أمانيه أن يشترك في غزو الروم فرداً في الجيش الإسلامي فقط، أيكون هو القائد؟! نعم هو القائد لأن الإسلام يرتقي بالشباب أيما ارتقاء ويبنيهم أحسن بناء، فجعله رسول الله ﷺ قائدا عاماً لجيش المسلمين، حتى أن النّبيّ لما أحس بصداع في رأسه وهو في مرضه الأخير، وارتفعت حرارته استدعى أسامة بن زيد، فعقد له اللواء مرة ثانية بيديه الشريفتين وهو يقول له: «يا أسامة أُغز باسم الله، في سبيل الله، فقاتل من كفر بالله» وهو بهذا يزيد في تقديره لأسامة الشاب، ويُعلّم الصحابة ما عَزَمَ عليه، ويؤكد قيادة هذا الشاب للجيش الإسلامي حتى لا يكون هناك مجالا للطعن فيه، وكان في الجيش أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم، فأخذ أسامة الشاب اللواء من النّبيّ ثم دفعه إلى بُريدة بن الحَصيب الأسلمي، وعسكر بالجُرف –وهو مكان يبعد عن المدينة بحوالي ثلاثة أميال– واشتد المرض بالنّبيّ ﷺ حتى ألزمه الفراش، ولكن نَمَى إلى علم النّبيّ أن بعض المسلمين يتّذمرون من تعيين أسامة قائداً للجيش وذلك لأنه صغير السن وفي الجيش من الصحابة مَن هو في عمر أبيه، أو أنه قد لا يكون عنده دراية كافية بالحرب، فقام بعد أن صُبَّ عليه ﷺ في بيته سبع قرب من الماء البارد، واتكأ عَلى عليّ بن أبي طالب وعمه العباس وهو

في أشد حالات المرض والإعياء ﷺ وعصب رأسه وخطب في المسلمين قائلا: «أيها الناس.. أنفذوا بعث أسامة، فلعمري إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيمُ اللَّهِ، إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان من أحب الناس إليّ، وإن هذا من أحب الناس إليّ بعده».

وهو بهذا يؤكد قيادة أسامة للجيش للمرة الثالثة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من التأكيد على قيادة هذا الشاب صغير السن لجيش المسلمين لقتال جيش الروم والتي هي أكبر دولة تعادي الإسلام في العالم في ذاك الوقت.

أبو بكر الصديق يؤكد قولاً وعملاً على إمارة سيدنا أسامة للجيش، عندما علم المسلمون أن أبا بكر قرر إرسال جيش أسامة بن زيد لمحاربة الروم بقيادة أسامة، تجمع نفر منهم وذهبوا بقيادة عمر بن الخطاب إلى أبي بكر الصديق خليفة المسلمين، إن كان ولابد أن نحارب الروم، فقالوا له اجعل على الجيش أحد القُواد الكبار السابقين في الإسلام، فإن الناس يتكلمون فيه وهو صغير السن وفي القوم من هو أسنُّ منه وأقدر على القيادة، قال أبو بكر وهو مغضب بعد أن أخذ بلحية عمر ويقول له: «ثكلتك أمك يا بن الخطاب؛ استعمله رسول اللَّهِ وتريديني أن اخلعه؟» وهذا تأكيد قوي على إمارة سيدنا أسامة للجيش، ثم ماذا فعل الخليفة أبو بكر؟ إن الجيش الإسلامي سيتحرك الآن لغزو الروم،

وعلى الخليفة الأول أن يودع أول جيش في عهده، لكن حدث من الخليفة وقائد الجيش موقفاً كان غاية في الروعة من الاثنين، إذ أن أبا بكر أخذ يودّع أسامة وهو يمشي على قدميه وأسامة راكبا فرسه، ليس لأن أبو بكر لم يكن لديه دابة يركبها أو سوء أدب من القائد!!

حاشا أسامة الذي تربي في بيت النّبيّ أن يفعل هذا، لكن ليقدما للإنسانية جمعاء أروع الأمثلة في فنون القيادة الحكيمة والحب الذي رباهم عليه النّبيّ ﷺ خجل سيدنا أسامة لما رأي أبو بكر –وهو خليفة المسلمين– يمشي بجواره وهو راكب فرسه، فقال له: «يا خليفة رسول اللهُ، والله لتركبَنّ أو لأنزلنّ»، ولكن الخليفة يردُّ بردٍّ كله تواضع وحكمة قائلا: «والله لا تنزل ولا أركب، وما على أن أُغبَّر قدماي في سبيل اللهُ ساعة»

رضي اللهُ عن أبي بكر الصديق وعن كل الصحابة أجمعين.

ثم يبالغ الخليفة في تكريمه لهذا الشاب الجدير بالقيادة، إذ يلتفت أبو بكر الصديق لأسامة وأمامه الجميع يقول له: «يا أسامة إن أردت أن تعينني بعمر فافعل»، قال أسامة افعل يا خليفة رسول اللهُ. وأخذ الخليفة يوصي الجيش وهو يقول أيها الناس اسمعوا وأطيعوا لأسامة.

أطاع الصحابة وكل من في الجيش قائدهم طاعة كانت من أهم

عوامل النصر لهذا الجيش، وقد استغرق أسامة بجيشه أربعين أو سبعين يوماً حتى نصره اللَّهُ على أعدائه ورجع محملاً بالغنائم، ودخل المدينة على فرس أبيه وكانت تسمى (سُبْحة)، ودخل المسجد، وصلي ركعتين وأنصرف إلى بيته منتصراً ظافراً موفقَّاً من اللَّهُ، هذا هو الشاب صغير السن الذي تربي على الإسلام وعلى مبادئ الإسلام، فأين نحن منه يا شباب المسلمين الآن؟

• • •

السفير الشهيد مصعب بن عمير

شاب هو غُرة فتيان قريش، وأوفاهم بهاءً وجمالاً وشباباً، هو (فتى مكة المدلّل) تروي كتب السيرة عنه أنه «كان أعطر فتيان مكة» ولد هذا الفتى في النعمة، بل وغُذِّيَ بها بل وشب تحت أديمها. هذا الشاب أيها الأحباب هو (أول سفراء الإسلام)، ذلك الفتى الرباني المدلل المنعم، حديث حِسَان مكة، بل ولؤلؤة ندواتها ومجالسها، هل يمكن أن يتحول إلى أسطورة من أساطير الإيمان والفداء؟ بالله ما أروعه من نبأ إنه مصعب بن عمير أو مصعب الخير كما لقبه المسلمون، إنه واحد من أولئك الذين صاغهم الإسلام ورباهم نبي الإسلام محمد ﷺ.

هذا الشاب كان عمره حوالي ثلاث وعشرون سنة تقريباً، وكان ذائع الصيت بمكة، حتى إنه على الرغم من حداثة هذه السن إلا أن أهل مكة كانوا جميعاً يحرصون كل الحرص على أن يكون في كل ندواتها من الحضور، وذلك لأناقة مظهره ورجاجة عقله التي كانت من خصاله، وله تُفتح القلوب والعقول والأبواب، أرأيتم تدليلاً أكثر من أن يُؤتى له بالعطر من الشام، وحذائه من حضرموت، ولباسه من لبنان، هكذا كانت حياة هذا الشاب قبل إسلامه.

دار الندوة لا يحضر فيه إلّا من زاد عمره عن الأربعين، ولابد أن يكون من سيحضر ذا شأن قومه، إلا أن مصعب الخير البطل الشاب، كان يحضر وعمره لا يتعدّى الثالثة والعشرون، وترك كل هذا لله، فما أن سمع أن الرسول صاحب دعوة الإصلاح والتغيير للمجتمع الذي انحلت أخلاقه، وفسدت عقائده، وصاروا في ظلمات بعضها فوق بعض.

سمع هذا الشاب أن الرسول ومن آمن معه يجتمعون بعيدا عن عيون قريش، يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فقام من تَوّه وبدون تردد إلى هذه الدار التي يتربى فيها المسلمون، والمحضن الأساسي لهم، فوصل إلى هذا المكان وسمع النّبيّ ﷺ يتلوا عليهم القرآن ويصلي معهم للرحمن، سمع مصعب كلاماً ليس من كلام البشر، ورآهم وهم يصلون لله ويأتمون بالرسول ﷺ، فأسلم مصعب من لحظته، كما قرر أن يكتم إسلامه عن الجميع في مكة وظل على ذلك من الكتمان، وهو يتردد بين دار الأرقم وبيته وهو في ذلك كله لا يخاف أحداً من البشر على وجه الأرض إلا شخصاً واحدً، هذا الشخص له مكانة في قلبه، هذا الشخص هو «خُناس بنت مالك»

أم مصعب بن عمير، المرأة ذات النفوذ بين أهل مكة، وذات الشخصية المرعبة لمصعب، إنها قد كانت تُهاب إلى حد الرهبة، ولكن -دوام الحال من المحال- فقد أبصره أحد عيون قريش،

وهو يدخل إلى دار الأرقم، وأيضا وهو يصلي كما يصلي محمدٌ وأصحابه، فراح وبسرعة البرق ليخبر أم مصعب الخبر، فما أن سمعت حتى طار صوابها، وذهب عقلها، ودق قلبها.

لكنه وقف صامداً شامخاً معتزاً بإسلامه أمام أمه وعشيرته، وأشراف مكة جميعاً، وقف وكله ثبات ويقين ويتلوا عليهم القرآن، ويكلمهم عن هذا الدين الجديد، الذي لمس شغاف قلبه وصار بالدخول فيه يعرف قيمة إنسانيته، ويحس ببشريته، ولكن أمه صاحبة النفوذ القوي همت أن تسكته بلطمه قوية قاسية، ولكن أنّى تؤثر هذه اللطمة بإنسان صار في قلبه إيمان كالجبال الرواسي فاسترخت هذه اليد أمام هذا الإيمان، ولكنها لم تسكت بل أقسمت أن تثأر لآلهتها المزعومة فقامت وأخذته إلى ركن من أركان دارها وحبسته فيه، وأحكمت عليه إغلاقه، وأخذت تعذبه عذاباً شديداً وهي تضرب بقلب الأم تجاه ولدها عرض الحائط، وظل هذا الشاب المسلم الصامد بعقيدته أمام طغيان الكفر في مكة حتى سمع بخبر جديد، وهو خروج بعض المسلمين إلى الحبشة، فاحتال هذا الشاب لنفسه كيفية هروبه بدينه وعقيدته إلى هذه الأرض البعيدة من مكة، فقام في غفلة من أمه وحُرَّاسه عنه، وفر إلى الحبشة في الهجرة الأولى ثم رجع هؤلاء المهاجرين لما أشيع أن عمر بن الخطاب قد أسلم وكثير من أكابر وعظماء مكة قد دخلوا في الإسلام، فلما وصلوا قريباً منها تيقنوا أن هذا الخبر

لم يكن صحيحا فأمرهم النّبيّ أن يرجعوا مرة أخرى إلى الحبشة فهاجروا الهجرة الثانية بأمر من النّبيّ، فكان مصعب من أوائل من سمعوا وأطاعوا لأمر النّبيّ، خرج يوماً على بعض المسلمين وهم جلوس حول رسول ﷺ فما أن رآه الصحابة على حالته حتى حنوا رؤوسهم وغضوا أبصارهم وذرفت عيونهم، ورقت قلوبهم، وذلك أنهم رأوه وهو يرتدي جلبابا مرقعاً بالياً، وقد تخشف جلده تخشف الحية، وقد عاودتهم صورته الأولي قبل إسلامه حين كانت ثيابه وحذائه وعطره يأتيه من بلاد بعيدة، نظر النّبيّ ﷺ إليه وما آل إليه وضعه والنّبيّ يقول: «لقد رأيت مصعب هذا، وما بمكة فتى أنعم عند أبويه من مصعب، ثم ترك ذلك كله حباً لله ورسوله» ودعا له النّبيّ ﷺ. نعم لقد ترك مصعب كل هذه الرفاهية حباً في اللَّهُ ورسوله ولقد تمثل فيه هذا الحديث الذي ذكره النّبيّ ﷺ فيما قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن اللَّهُ مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء....» إنها لم تؤثر في عقيدته ودينه، فلم تتمكن من قلبه.

سفارته إلى يثرب

لما كانت بيعة العقبة الأولى مع مَن حضرها من أهل يثرب، وبعد مبايعة النّبيّ ﷺ لهم أرادوا الرجوع إلى بلدهم، فطلبوا من النبي ﷺ أن يبعث معهم واحد من المسلمين المكّيين، ليمكث معهم في

المدينة، وذلك لأمورٍ لابد منها:

– أنه سيقوم بتعليمهم الإسلام، خاصة وأنهم يُساكنون اليهود في المدينة، والمسافة بين مكة والمدينة تقارب الخمسمائة كيلومتر وهي مسافة طويلة، فالواجب على من سيذهب معهم أن يكون قد تعلم أولاً من الإسلام ما يستطيع أن يدعُ به هؤلاء في المدينة ففاقد الشيء لا يعطيه.

– أن يكون هذا المبعوث عنده من الأخلاق ما يجعله صورة متحركة بالإسلام في المدينة أو يكون قدوة حسنة لمن سيتعلمون منه فكل قرين بالمقارن يقتدي فلابد أن يتعلموا من أخلاقه وسلوكياته قبل كلامه.

– أن يكون فطناً ذكياً حتى يكون سبباً في دخول أكبر عدد ممكن من أهل المدينة وبقدر ما يقوم به من دعوة أهل المدينة ودخول مَن يدخل في الإسلام يكون قيام دولة الإسلام قُرْباً أو بُعداً فالمدينة سيكون بها قوة من المسلمين عظيمة قادرة على اجتياز أي خطر متوقع من قِبَل الأعداء.

– تهيئة نفوس أهل المدينة لاستقبال المسلمين الذين سَيَأتون لا محالة من مكة وأيضا من سيفدون من الحبشة إلى هذه الدولة الجديدة التي ستجمعهم وسيعيشون فيها عمّا قريب ويكونون النواة الأولى فيها.

– الدراسة الجادة والمتعمقة للوضع العسكري، والأمني،

والاقتصادي، والاجتماعي، للمدينة، والتي ستكون هي دار الهجرة القادم ودولة الإسلام فيما بعد، وهذا يُعَدّ تخطيطاً لبناء دولة إسلامية جديدة تكون هي قاعدة الانطلاق لنشر الإسلام في ربوع العالم كله.

إذن من سيختاره المصطفى للقيام بهذه المهمة؟ فلابد من إنسان له مواصفات خاصة حتى يكون أهلا لهذه المهمة.

لهذا أرسله الرسول

– لأنه كان يحفظ معظم ما نزل من القرآن تقريباً، فهو من علماء الصحابة، وهو من أوائل من أسلموا، وهذه الصفة لها أهمية كبيرة ومتميزة فالمسافة بين مكة والمدينة طويلة وشاقة، فأين الفرصة التي تجعله يرجع ليسأل النّبيّ فيما يُشكل عليه من المسائل، كما أنه لا يوجد في المدينة أي مصدر من مصادر لمن يريد أن يتعرف على الإسلام إلّا هو، فلابد إذن من العلم وحفظ القرآن وفهمه، فهو أصلح من يقوم بهذه المهمة.

– ما كان يتصف به سيدنا مصعب من صفات فطرية: وهي الحلم، والصبر، واللباقة، والهدوء، وسعة الصدر، كما أنه من أشراف مكة، فهو من بني عبد الدار أهل الشرف والسيادة في قريش، حتى أنهم كانت معهم مفاتيح الكعبة يتوارثونها، كابر عن كابر، فهو أصيل في قومه، ثم أنه سيذهب إلى قوم (أهل يثرب)

عندهم العصبية القبلية، موجودة في دمائهم فأول ما سينظرون فيمن يَقْدمُ إليهم هو من أي القبائل هو؟ وما نسبه في قومه؟
– أنه خير من يُقتدي به في نظر كل من الأغنياء والوجهاء وذووا الشرف، فإذا حدثتهم أنفسهم بالدخول في هذا الدين والدعوة إليه وأن يتركوا الدنيا وملذاتها، وعيشة الترف، فإنهم سينظرون إليه وإلى أصله، ووجاهته في أهله، ومن ثَمَّ كانت لهذه الصفة أهمية كُبرى إذ لو كان –والله أعلم– مصعب من الموالي أو العبيد فمن الممكن أن لا يستمعوا إليه ولا يستقبلوه وهي رسالة واضحة إلى كل الناس أن هذا الدين ليس ثورة من الفقراء على الأغنياء فهذا مصعب كان غنياً جداً، وترك هذا كله من أجل هذا الدين الذي يدعو إليه ويعتنقه.
– ثراء مصعب ورفاهيته السابقة مانعة له من الفتنة برغد العيش في المدينة أو أن يُفْتَتَن بالدنيا وذلك لعدم فتنته بالدنيا التي كانت بيده وقد تركها كلها وهو قادرعليها، فكيف يفتن بها وهو غير قادر على أن يصل إليها، كذلك فتنة الرئاسة والجاه حيث أن مصعب كان يتوج لزعامة قبيلته بني عبد الدار ولأجل هذا الدين الجديد الذي اعتنقه تركها.
– هجرته ﷺ الهجرتين إلى الحبشة جعلته قادر على أن يترك أهله ووطنه، ولفترات طويلة مضحياً بكل شيء في سبيل اللَّهِ لأنه لما هاجر لم يكن يعلم هل سيرجع من هجرته للحبشة أو أنه

سيموت هناك، فقد تعَوَّد مصعب ﷺ وهو شاب على مفارقة أهله وأحبابه، فهو مؤهل لهذه المهمة. كذلك الهجرة للمدينة كم تأخذ من الوقت ؟ وكم فيها من المشقات والصعاب؟ ومن ثم فأن من خاض التجربة مرّة أو مرتين فستكون عنده القدرة على فعلها مرات ومرات.

– عمر مصعب وقتها كان أقل من خمس وثلاثين عاماً، وهذا هو السن المناسب لهذا العمل الشاق الذي يحتاج إلى (حكمة الشيوخ وحماس الشباب)، فهو ليس صغيراً، حتى يكون متهوراً ومندفعاً ويتخذ القرارات الحماسية التي غالبا تضر بدعوته، وليس هو أيضاً شيخاً كبيراً وبالتالي، تصعب عليه الحركة والتنقل من مكان إلى آخر.

لهذا وقع اختيار النّبيّ لسيدنا مصعب بن عمير، الشاب الذي سطر التاريخ أعماله بحروف من نور، لذا لما سأله النّبيّ ﷺ عن حال أهل المدينة، لَخَّصَهَا له في جملة واحدة، قال له سيدنا مصعب: «يا رسول ﷺ لقد تركت المدينة وما من بيت إلا ودخله الإسلام؛ يا رسول ﷺ لقد تهيأت المدينة لاستقبالك أنت وأصحابك والإسلام»[1]

صاغه الإسلام فتقدم حين نادت المغارم، وذهب إلى لقاء ربه قبل

(١) انظر بتصرف واختصار أصحاب الرسول لمحمود المصري ج١ ص٣٠٠ ومجموعة السيرة النبوية د/ راغب السرجاني وقد استفدت منها كثيراً

مجيء الغنائم، اختاره ﷲ شهيداً بين يدي رسول ﷲ ﷺ بعد أن أسلم على يديه أُسيد بن حُضير، الذي تنزلت الملائكة لقراءته للقرآن، وسعد بن معاذ الذي اهتز لموته عرش.(١)

هذا نموذج من أجدادنا الذين تربوا على الإسلام وعلى حبهم له ودعوتهم إليه ولن تصلح هذه الأمة إلّا بما صلح به أولها وهو تمسكهم بإسلامهم ودفاعهم عن عقيدتهم كما كان الأولون، ورحل البطل وهو يحمل لواء الإسلام، وقد حقق ﷲ له ما كان يحلُم به ويتمناه من الشهادة في سبيل ﷲ، واستشهد الشاب البطل في هذه المعركة، ولما استشهد لم تبقى له إلا نمرة -ثوب قديم بالي- فكان الصحابة إذا غطوا بها رأسه بَدَت رِجْلَاه، وإذا غطوا بها رِجْلَاه بَدَت رأسه، فقال لهم النّبيّ غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه شيء من الأزخر.

هؤلاء كان الإسلام سبب عزتهم وكانوا هم سبب عزة الإسلام، ولسان حالهم ومقالهم يقول: «كنا أذلاء فأعزنا ﷲ بالإسلام وإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا ﷲ».

والأمل في ﷲ وحده أن ترجع الأمة لسابق عهدها وتسود العالم وتقود الأمم وبإذن ﷲ هذا سيكون وعلى سواعد شبابها

(١) انظر ترطيب الأفواه د/ سيد العفاني ج١ ص٢٧٤ وبعدها بتصرف

سيتحقق ويقولون: «متى هو قل عسى أن يكون قريباً» ألا رضي اللَّهُ عن مصعب بن عمير، ورضي اللَّهُ عن الصحابة أجمعين وحسبنا اللَّهُ ونعم الوكيل.

• • •

الخليفة الخامس

هو المصلح الكبير والخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، أشج بني أمية، كان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين، وكان حسن الأخلاق، كامل العقل، حسن السّمت، جيد السياسة، حريصًا على العدل، فقيه وافر العلم، طاهر النفس، أواهًا مُنيبًا قانتا زاهدًا، ناطقًا بالحق مع قِلَّة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين مَلُّوه وكرهوا محاققته لهم، وتنقيصه لأعطياتهم، وأخذه كثيراً مما في أيديهم، مما أخذوه بغير حق، فما زالوا به حتى سَقَوه السم، فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُدَّ عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين رحمه الله.

قصةٌ عجيبةٌ وورعٌ مطلوب

والده هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، كان من خيار أمراء بني أمية، شجاعًا كريمًا، بقي أميرًا لمصر أكثر من عشرين سنة. كان من تمام ورع وصلاح عبد العزيز بن مروان والد عمر أنه لما أراد الزواج قال لقَيِّمِه (خادمه والقائم على أموره)، اجمع لي أربعمائة دينار من أطيب مالي وأخلصه؛ فإني أريد أن أتزوج من

أهل بيت ذا دينٍ وصلاح، فكل رجل عظيم لابد أن تكون من أسباب عظمته وعُلوّ مكانته امرأة تُعينُه على ذلك، أن تكون له أُمّاً مُراقبةً لله فتُرَبّيه على الإسلام، وتحثه عليه.

والأمُّ مدرسة إن أعددتهـــــا أعددت جيلاً طيب الأعراق

أو زوجة صالحة تعينه على أمور دينه ودنياه، ومن ثَمّ تربي له أولاده تربية صحيحة على الإسلام وتحُضُّهم عليه، فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وهي حفيدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقيل: اسمها ليلي، ومما يدُلُّ على صلاحه وورعه وتقواه، أن زواجه من آل الخطاب ما كان ليَتِمّ لولا علمهم بحاله وحسن سيرته وخُلُقه، فقد كان حسن السيرة في شبابه، فضلاً عن التزامه وحرصه على تحصيل العلم واهتمامه بالحديث والسنة العملية، فقد جلس إلى أبي هريرة وغيره من الصحابة وسمع منهم، وقد واصل اهتمامه بالحديث بعد ولايته مصر، فطلب من كُثَيِّر بن مُرَّة في الشام أن يرسل إليه من يُسمِعه من حديث رسول ﷺ إلا ما كان من طريق أبي هريرة فإنه عنده، وهذا من أدلّ الأشياء على حرصه على العلم ومدى اهتمامه بالسُّنة.

جدته لأمه هي صاحبة الموقف المشهور مع عمر بن الخطاب، رُوى عن أسلم مولى عمر قال: بينما أنا وعمر بن الخطاب وهو يَعِسّ بالمدينة إذ وَجِع (أي مرض) فاتكأ على جانب جدار في

جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه (فاخلطيه)بالماء. فقالت لها: يا أمّاه، أما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم؟ قالت: وما كان من أمره يا بُنَيّة؟ قالت: إنه أمر منادياً، فنادى أن لا يُشابَ اللبنُ بالماء فقالت لها: يا بنتاه، قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء؛ فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر، فقالت الصبية لأمها: يا أماه، واللهِ ما كنتُ لأطيعه في الملأ، واعصيه في الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم، عَلِّمِ الباب واعرف الموضع، ثم مضى في عسِّه.

فلما أصبحا قال: يا أسلم، امضِ إلى الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها، وهل لهم من بعل؟ قال: فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيّم لا بعل لها، وإذا هذه أمها، وليس لها رجل، فأتيت عمر فأخبرته، فدعا عمر أولاده، فجمعهم فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أُزوِّجه؟ فقال عاصم: يا أبتاه، لا زوجة لي فزوجني فبعث إلى الجارية، فزوجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتًا هي زوجة عبد العزيز، أم عمر بن عبد العزيز.

ولد رحمه اللهُ بالمدينة المنورة عام ١٦هـ، وهو قول أكثر المؤرخين، وكان يُلقّبُ بالأشج، وذلك أن عمر بن عبد العزيز كان صغيرًا دخل إلى إسطبل أبيه عندما كان والياً على مصر ليرى الخيل، فضربه فرس في وجهه فشجه فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول:

إن كنت أشج بني أمية إنك إذا لسعيد، وكان الفاروق عمر يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً.

وكان الفاروق قد رأي رؤيا تشير إلى ذلك، وقد تكررت هذه الرؤيا لغير الفاروق حتى أصبح الأمر مشهورًا عند الناس، بدليل ما قاله أبوه عندما رأي الدم في وجهه، وذلك تفاؤلاً لعله أن يكون ذلك الأشج الذي يملأ الأرض عدلاً.

بيئة صالحة

نشأ عمر بالمدينة وتخلق بأخلاق أهلها وتأثر بعلمائها، وأكبَّ على أخذ العلم من شيوخها، وكان يقعد مع مشايخ قريش ويتجنب شبابها، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر هذا الأمر عنه، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده، وقدَّمه على كثير منهم، وزَوَّجَه ابنته فاطمة بنت عبد الملك، وهي امرأة صالحة تأثرت كثيرًا بعمر بن عبد العزيز، وآثرَت ما عند الله على متاع الدنيا، وهي التي قال فيها الشاعر:

بنت الخليفة والخليفة جدهـــا أخت الخلائف والخليفة زوجها

لهذا صار عمر

- الأسرة: والتي هي أول بناء اهتم به الإسلام، إذ نشأ عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة، فلما شَبَّ وعقل -وهو غلام

صغير- كان يأتي عبد الله بن عمر بن الخطاب (الذي توفي عام ٢٧هـ عن ٤٨ سنة تقريباً) لمكان أمه منه، ثم يرجع إلى أمه فيقول: يا أُمَّه، أنا أحب أن أكون مثل خالي يريد عبد الله بن عمر ثم سافرت أمه إلى مصر حيث أبوه والياً عليها، فلما قدمت على زوجها، سألها عن عمر ابنه، فأخبرته الخبر، فسُرَّ بذلك عبد العزيز، وهكذا تربي عمر بين أخواله بالمدينة من أسرة عمر بن عبد الخطاب، ولا شك أنه تأثر بهم وبمجتمع الصحابة في المدينة.

- إقباله المبكر على طلب العلم وحفظه القرآن الكريم حيث رزق عمر بن العزيز منذ صغره حب الإقبال على طلب العلم وحب الجلوس بين العلماء، كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم، في المدينة وكانت يومئذٍ منارة العلم والصلاح زاخرة بالعلماء والفقهاء والصالحين، وتاقت نفسه للعلم وهو صغير، فحفظ القرآن وهو صغير، وساعده على ذلك صفاء ذهنه وقدرته الكبيرة على الحفظ وتفرغه الكامل لطلب العلم والحفظ.

- البيئة الاجتماعية المحيطة بأيّ إنسان لها دور فعال ومهم في صناعة الرجال وبناء شخصيتهم، فعمر بن عبد العزيز عاش في زمن ساد فيه مجتمع التقوى والصلاح والإقبال على الآخرة، والعمل بالكتاب والسنة، فقد كان عدد من الصحابة ما زالوا

بالمدينة، فقد حدَّث عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، واستوهب منه قدحًا شرب منه النّبيّ وأمّ بأنس بن مالك، فقال أنس: «ما رأيت أحدًا أشبه صلاة برسول ﷺ من هذا الفتى».

فكان للإقامة بالمدينة الآثار النفسية، والمعان الإيمانية والتعلق الروحي، وكان لذلك المجتمع أثره في صياغة شخصية عمر بن عبد العزيز العلمية والتربوية.

– تربيته على أيدي كبار فقهاء المدينة وعلمائها فقد اختار أبوه صالح بن كيسان ليكون مربياً لعمر بن عبد العزيز، فتولى صالح تأديبه، وكان يُلزِمه الصلوات المفروضة في المسجد، فحدث يوماً أن تأخر عمر بن عبد العزيز عن صلاة الجماعة، فقال صالح بن كيسان: ما يشغلك؟ قال: كانت مُرَجِّلَتي تُسَكِّن شعري، فقال: بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟ فكتب إلى عبد العزيز يذكر له ما حدث من عمر، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حَلَقَ رأسه، فلم يُؤثر عنه أن تأخر عن تكبيرة الإحرام بعدها قط، هذه التربية الإسلامية الصحيحة التي يجب أن يربي عليها المسلمون أولادهم اليوم، بدلاً من أن نتركهم ضحية إعلامٍ فاجر، وأصدقاء سوء.

هؤلاء مَن تربى وتعلم عمر بن عبد العزيز على أيديهم، والذين بلغوا عدداً كبيراً، منهم ثمانية من الصحابة؛ قد نهل من علمهم،

وتأدب بأدبهم، ولازم مجالسهم حتى ظهرت آثار هذه التربية في أخلاقه وتصرفاته، فامتاز بصلابة الشخصية، والجدية والحزم في معالجة الأمور، وإمعان الفكر وإدامة النظر في القرآن، والإرادة القوية والترفع عن الهزل والمزاح.

وقد اتفقت كلمة المترجمين له على أنه من أئمة زمانه، فقد أطلق عليه كل من الإمامين مالك وسفيان بن عيينة وصف إمام.

قالوا عنه:

قال مجاهد: أتيناه نُعلمه، فما برحنا حتى تعلمنا منه. وقال ميمون بن مهران: كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء. وقال عنه الذهبي: كان إمامًا فقيهًا مجتهدًا عارفًا بالسنن، كبير الشأن حافظاً قانتا لله، أوّاهاً منيبًا، يُعَدُّ في حُسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر بن الخطاب، وفي الزهد مع الحسن البصري، وفي العلم مع الزهري، وقد إحتج العلماء والفقهاء بقوله وفعله، وقال عنه الإمام أحمد: إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز، ويذكر محاسنه وينشرها؛ فاعلم أنه على خير.

وقال عنه مالك بن دينار: الناس يقولون عنِّي: زاهد، وإنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها.

في ربيع الأول من عام ٧٨هـ أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بتكليف عمر بن عبد العزيز بإمارة المدينة المنورة، ثم ضمَّ إليه ولاية الطائف سنة ١٩هـ، وبذلك صار والياً على الحجاز كلها.

هذا عمر

كتب عمر ﷺ إلى أحد وُلاتِه موعظة، فقال: «أمَّا بعد، فإذا دَعَتْكَ قدرتُك على الناس إلى ظلمهم، فاذكر قدرةَ اللهِ عليك في نفاد ما يأتي إليهم، وبقاء ما يُؤْتَى إليك».

من أقواله: إن أحب الأمور إلى اللهِ القصد في الجد، والعفو في المقدرة، والرفق في الولاية، وما رفق عبد بعبد في الدنيا إلا رفق اللهُ به يوم القيامة، فيُروى أنه خرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشجَّه صبي منهم، فاحتملوا الصبي الذي شج ابنه وجاءوا به إلى عمر، فسمع الجلبة فخرج إليهم، فإذا امرأة تقول: إنه ابني وإنه يتيم فقال لها عمر: هوّني عليك، ثم قل لها: أَلَه عطاء في الديوان؟ فقالت: لا. فقال: اكتبوه في الذرية فقالت زوجته فاطمة: أتفعل هذا به وقد شج ابنك؟ فقال: ويحك! إنه يتيم وقد أفزعتموه. لذلك عندما وصل نبأُ موتِ الخليفة عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى إمبراطور الروم الذي كان خَصمًا عنيدًا لدولة الإسلام، بكى بكاءً شديدًا أذهل حاشيته، فسألوه عن ذلك، فأجابهم بقوله: ماتَ والله رجلٌ عادلٌ، ليس لعدله مثيلٌ، وليس ينبغي أن يَعجبَ الناس

لراهبٍ ترك الدنيا؛ ليعبدَ اللَّهَ في صومعته، إنما العجبُ لهذا الذي أتته الدنيا حتى أناختْ عند قدمه، فأعرض عنها.

• • •

"الرشيد" المتواضع

يثير اسم هارون الرشيد وتثير ذكريات عصره في النفس أجلالاً أيّما أجلال وروعة وليس مرجع ذلك فقط إلى أن الرشيد كان من أعظم خلفاء الإسلام، أو أعظم أمراء العصور الوسطى، الذي بلغت الدولة العباسية في عهده ذروة القوة البهاء، ولكنه يرجع بالأخص إلى شخصيته وما كان يتمتع به من مواهب وخلال باهرة، تجمع بين الفروسية المثلي والبراعة في شئون الحرب والسياسة، وصفات الحاكم الأمثل، وبين التُقى والوَرع، وبين الحَزم والصرامة والعواطف الإنسانية المؤثرة، وهذا المزيج المدهش من الصفات والخصال البارعة، كل هذا أضفى على هارون الرشيد لوناً زاهياً من العبقرية، بل ويضع لشخصيته مكانتها الحقيقية في التاريخ بين أعظم الشخصيات في العصور الوسطى[1].

فقد تولى الحكم ولم يبلغ من عمره إلا اثنين وعشرين سنة أو أقل في بعض الروايات[2]، حيث أنه قد تولى الخلافة في منتصف ربيع الأول سنة ١٧٠هـ بعد وفاة أخيه (موسى الهادي) وذلك بعد أن

---

(١) انظر تراجم إسلامية د/ عنان ط مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠ ص١٠ بتصرف

(٢) حيث تقول بعض الروايات أن مولده سنة ١٤٩هـ أو ذي الحجة سنة ١٥٠هـ الخطيب البغدادي كما في تاريخ بغداد ج١٤ ص ٥ وعلي ذلك فعمره علي هذه الرواية عند توليته الخلافة ٢٠ سنة فقط

استقرت شئون الدولة العباسية وتوطدت دعائمها، وأخذت تشق طريقها قُدُما إلى المجد، وكان هو خامس الخلفاء العباسيين، وأمه هي الخيزران المشهورة في سير العصر والمعروفة بذكائها وخُلُقها، ومن أبنائه المشهورين المأمون، والأمين.

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة المأمون قد ولد في الليلة التي تولى فيها الرشيد الخلافة حتى قيل عن هذه الليلة: «ولد فيها خليفة (المأمون)، وولي فيها خليفة (الرشيد)، ومات فيها خليفة (الهادي) أخو الرشيد»

هذا وكما قلنا أن الرشيد قد تولى الحكم ولم يبلغ عمره اثنين وعشرين عاماً حيث أنه ولد في شهر ذي الحجة سنة ٨٤١ هجريه على الراجح وتولى الخلافة في ربيع الأول سنة ٠٧١ هجريه وبهذا يكون الرشيد قد عاش في الخلافة ٣٢ عاما حيث انتهت خلافته بموته في جماد الآخر ٤٩١ هجريه –أو ٣٩١ هجرية على الراجح– أي تولى وهو في أول الشباب وتوفي وهو في ريعان الشباب وعمره يبلغ ٥٤ سنه وشهور تقريباً.

كان الرشيد، مطيعا لربه، كثير الصلاة والصيام والصدقة، كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وكان إذا حج يأخذ معه كثير من الفقهاء والعلماء وأبنائهم، وإذا لم يحج في عام، كان يحج عنه ثلاث مائة رجل من ماله الخاص، وبالنفقة السابغة، والكسوة الباهرة[1].

(١) انظر الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ج١ ص٢٥٢ ط أولي سنة ٢٠٠٥ مؤسسة اقرأ تقديم د/ راغب السرجاني

قال الطبري في تاريخه «إن هارون الرشيد حج بنفسه سبع مرات وجهز عشرين حملة للجهاد في البر والبحر»

وقال الفضيل بن عياض: ليس موتُ أحد أعزُّ علينا من موت هارون الرشيد، قيل له ولماذا ؟ قال لِمَا أتخوف بعده من الحوادث والفتن، وأني لأدعو اللهَ أن يزيد في عمره حتي ولو من عمري، قالوا فلما مات الرشيد وظهرت تلك الفتن والحوادث والاختلافات وظهر القول بخلق القرآن، عرفنا ما كان يتخوف منه الفضيل رحمه اللهُ من موت الرشيد.

زلّة وندم

لما حقد الحاقدون وأصحاب القلوب المريضة، فقاموا بالدَّسِّ والوشاية عند هارون الرشيد ضد البرامكة الذين قامت على أكتافهم الدولة العباسية، الذين هم أخلصُ النَّاس له وكانوا وزراؤه وقُوَّادُه، لكن وبفعل فاعل جاءت سنة ٧٨١ هجريه وكانت محنة البرامكة، ولكنه ندم بعدها وقال ما يدل على ندمه، قال قولته المشهورة في حقهم ومعتذراً لهم: «قاتل اللهُ من أغراني بالبرامكة فما وجدت بعدهم في العيش لذةً ولا رجاءً ولا راحةً أبدا، ووالله لَوَدِدتُ أني شُطِرتُ نِصْفَ عُمري ومُلْكي وأني تركتهم على حالهم»

تدلنا هذه الكلمة المشهورة عنه أنه كان رجّاعاً إلى الحق محباً له

حتي ولو كان على حساب نفسه.. رحمه الله.

حبه لدينه

له موقف من مواقف كثيرة تبين لنا مدى حبه لدينه وغيرته عليه. ففي عهد هارون الرشيد حَكَم الروم حَاكِم يُقَالُ له نقفور، وما أن تولى هذا الملك الحكم في بلاد الروم حتي بعث برسالة شديدة إلى الرشيد قائلا له فيها: «من نقفور مَلِكِ الروم، إلى هارون مَلِك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي قد أقامتك مقام الرُّخّ وأقامت نفسها مكان البَيْدَق فحملت إليك من أموالها ما كنتَ أنت حَقيقاً بِحَمْل أمثالهِ إليها، ولكن هو ضَعْف النساء وحُمْقِهنّ، فإذا قرأت كتابي هذا فارْدُد إليّ مَا حَمَلتْ إليك من الأموال، وافتدِ نفسك بِما يَقَعُ به المصَادَرةُ لك وإلّا فالسيف بيني وبينك»

فلما قرأ الرشيد هذا الكتاب، استَفَزّهُ الغضب واستشاطته حمية الإسلام، فكتب من فورهِ على ظَهر الكتاب الذي جاءه: «بسم الله الرحمن الرحيم؛ من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم.. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه»

ثم جهز جيشاً كبيراً وقاده بنفسه، فاجتاحت جيوشه بلاد الروم، وهزمت جُيوش نفقور شر هزيمة حتي اضطر نقفور إلى المصالحة، وعقد الصلح على جزية يؤديها نفقور إلى بيت مال المسلمين.

أولئك آبائي يا جريـــر فجئني بمثلهم إذا جمعتنـا يا جرير المجامع

يُعد الرشيد أصغر قائد في التاريخ، قاد الجيوش ضد الروم وعمره أقل من خمس عشرة سنه أي في سنة ٣٦١ هجرية، أُثر عنه أنه كان لا يأكل طعاما ولا توضع له مائدة إلاّ ويكون معه من يأكل منها معه من الفقراء وذوي الحاجات.
كان يجلس ذات مرة خارج قصره فنظر في السماء فوجد سحابة، فقال لها مقولة الحاكم العادل، الذي أحبه شعبه وَأَمِنَتهُ رعيتُه قال: «أيها السحابة أمطري حيث شئتي فسيأتيني خراجُك»

يا للعدل يا أمير المؤمنين، كل هذا وهو شاب في ريعان الشباب، لكنه تربي على الإسلام وعاش للإسلام مناصراً له وحاكما به وعادلا في رعيته حتى عمَّ الرخاء في عصره فقد بلغت إيرادات الدولة العباسية في عهده أكثر من ٧٠ مليوناً و ١٥٠ ألف دينار من الذهب، هذا هو الرشيد أيها المسلمون.

الإعلام والرشيد

تولى الإعلام في كثير من بلاد المسلمين تشويه صورته، حتى إذا أردنا أن نعرف من يُقتَدَي بهم من هؤلاء الحكام فإنك ستراهم في الإعلام هم من الفاسدين المفسدين، لا هَمَّ لهم إلّا أنهم يَشربون الخمر، ويجلسون مجالس اللهو واللعب، ويُشاهدون المغنيات والجواري، ويعيشون مع ليالي الطرب والمجون، وهذا أمر مقصود

لنعيش بلا تاريخ ولا نعتز بهويتنا الإسلامية، وننفصل عن مصدر عِزتنا، فلو سألت عن الرشيد فإنه ما تراه في المسلسلات صاحب (ألف ليلة وليلة) يعاقر الخمر ويغازل النساء، هذا هو الإعلام الذي شوَّه صورة كل شريف.

واجه الرشيد من دعاة العلمانية والتزوير تشويها كبيراً، فهل شرب الرشيد الخمور أم هل كان مزواجاً كل همِّه النساء كما صوروه؟ يقول العلاَّمة بن خلدون وهو يتكلم عن الرشيد مبينا حاله ومدافعا عنه في كتابه المقدمة فيقول: «.. ومن ذلك ما يحكى من معاقرة الرشيد الخمر فحاش لله ما علمنا عليه من سوء، بل قام الرشيد بما يجب عليه تجاه منصب الخلافة، من العدالة والدين والبُعد عن المظالم، وما كان عليه من صحبةٍ للعلماء، والأولياء والصالحين، ومحاورته للفضيل بن عياض وبن السماك، ومكاتبته سفيان الثوري واستصحابه إياهم في كل أسفاره وفي حله وترحاله، بل وبكائه عند سماعه شيئا من مواعظهم له وقد كان يأمرهم بوعظه ونصيحتهم له، ودعائه بمكة في طوافه، ومن عبادته وتنفُّله وحجه وتطوعه، وأما الخمر فلا سبيل لاتهامه بها رحمه الله، وأما ما شاع عن انتشار الخمر في عصره فواقع دولته في عصره يُكّذب ذلك، والدليل أننا إذا نظرنا إلى حاشيته وبطانته فأننا سنجد على رأسها الأئمة الثقات من الفقهاء والعُبَّاد الزهاد من أمثال: مالك بن دينار رحمه الله وأبو يوسف صاحب أبي حنيفة، والإمام

الشافعي، والفضيل ابن عياض وابن السماك وعبد الله بن المبارك وغيرهم من هؤلاء العلماء الأعلام العاملين الذين لا يخشون في ﷲ لومة لائم، والذين لا يسكتون أبداً إذا وجدوا شيئا مخالفا للشرع، وإن كانت هذه الأشياء من خمر ومجون وخلافه موجودة في الدولة الإسلامية عصرَ الرشيد فهل يكون من المعقول أن يُقَرِّب الرشيد أمثال هؤلاء من العلماء ثم يشرب الخمر أو تنتشر في خلافته، وإن حدث منه مثل هذا فهل هؤلاء سيصمتون وإن صمتوا هم فهل يسكت غيرهم من العلماء الموجودين في عصرهم على هذه المنكرات»

وكيف يكون هذا الحال حال الرشيد والذي اشتهر عصره بأنه العصر الذهبي للتأليف والترجمة وعهد الرشيد كان أزهي عصور الخلافة الإسلامية، والشريعة معمول بها والشعب محكوم بالإسلام. أَمِثْل الرشيد الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً ويفعل الطاعات والقربات عنده وقت لمثل هذا الكلام وهذه التفاهات؛ غزا الرشيد الروم في إحدى غزواته الكثيرة وانتصر عليهم انتصارا باهراً مؤزراً فصالحه ملك الروم على أن يتركه الرشيد ويدفع ملك الروم الجزية للرشيد، وتعَاهَدا على ذلك، ولكنه نقض العهد بعد دفعه للجزية، وذلك لما علم بأن الرشيد قفل راجعاً بجيوش المسلمين، وأن الجيوش الإسلامية ربما لا تستطيع الرجوع إليه، لأن الوقت كان وقت شتاء، فقام أحد الشعراء الذين كانوا مشاركين في

الجيش الإسلامي برفع رسالة لهارون الرشيد وهو يصور فيها أن نقض العهد من المشركين يعتبر نصراً للمسلمين لأن أميرهم هو الرشيد الذي (ما هُزم في معركة من معارك الإسلام) فقال مخاطبا إياه:

نقض الذي عاهدته نقفور فعليه دائرة الهلاك تدورُ
ابشر أمير المؤمنين فإنه غُنم أتاك به الإله كبيرُ
فتحٌ يزيد على الفتوح يؤمُّنا بالنصر فيه لواؤك المنصورُ

ورع أمير

وللرشيد مواقف تدل على مدى ورعه وشدة التزامه بدينه ودفاعه عنه والجهاد ضد أعدائه، حج أمير المؤمنين ذات مرة فلما قضي اليوم الأول في مِنى كان معه في هذه الليلة وزيره الفضل بن الربيع، وجلس معه حتي حان وقت النوم انصرف الفضل إلى خيمته لينام وبينما هو نائم وبعد أن انقضى جزء من الليل، سمع الفضل قرع الباب أمام خيمته فقال من هذا؟ فقيل له أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعاً، فوجد هارون الرشيد واقف على الباب، فقال له الفضل يا أمير المؤمنين لو أرسلت لي أتيتك، فقال هارون: ويحك لقد حاك في نفسي شيئ لا يخرجه إلّا عَالِم، فانظر لي رجلاً أسأله عنه: فقال له الفضل: هاهنا سفيان الهلالي العالم المحدث، فقال هارون امضي بنا إليه قال الفضل: فأتينا خيمة سفيان فطرقنا عليه

الباب، فقال مَن هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين فخرج سفيان مسرعاً، فلما وجد أمير المؤمنين على باب الخيمة فقال يا أمير المؤمنين، لو أرسلت لي أتيتك فقال: الرشيد: بل نحن أحق أن نأتيك ولكن جد لنا ما جئنا له، ثم حَادَثَهُ ساعة، ثم سأله الرشيد أعليك دَين؟ قال سفيان نعم، فقال الرشيد يا أبا العباس اقض دينه، وانصرفنا فقال لي أمير المؤمنين ونحن في الطريق ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلا أسأله: فقلت: ها هنا عبد الرزاق الصنعاني قال امضِ بنا إليه فأتيناه ففعل معه مثل سابقه، ثم قال: اقض عنه دينه، ثم قال لي الرشيد ما أغنى عني صاحبك شيئا فانظر لي رجلاً اسأله فقلت: يا أمير المؤمنين ها هنا الفضيل بن عياض التميمي، شيخ الحرم ومن أئمة الهُدي فقال الرشيد: امض بنا إليه فأتيناه، فإذا هو قائم يصلي في خيمته، يتلو أية من كتاب اللَّهُ يرددها، فقرعت عليه الباب فقال من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين قال الفضيل: مالي ولأمير المؤمنين؟ فقلت: سبحان اللَّهُ أما تجب عليك طاعته؟ قال: نعم.

ففتح الباب، ثم أطفأ السراج والتجأ إلى زاوية في خيمته فجعلنا نجول عليه بأيدينا فاستبقت كف الرشيد كفي إليه فقال الفضيل: أواهٍ من كف، ما ألينها أن نجت غداً من عذاب اللَّهُ، فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي فقال الرشيد يا فُضَيل، جد لنا ما جئناك لأجله رحمك اللَّهُ: فقال الفضيل وفيم

جئت؟ حملت على نفسك، وجميع من معك حملوا عليك، حتي لو سألتهم أن يتحملوا عنك جزءاً من ذنب ما فعلوا، ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك، ثم سكت الفضيل وقت قليل، ثم استأنف كلامه في سكينة الظلام ورهبته، وكانت ضربات قلب الرشيد تكاد تسمعها أذناه، كأنها ضربات الساعة (القائل الفضل بن الربيع وزير الرشيد)

فقال الفضيل: إن أمير المؤمنين عُمَر بن عبد العزيز رحمه ﷲ، لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: «إني قد ابتليتُ بهذا البلاء، فأشيروا علي، فعدّ الخلافة بلاءً وعددتها أنت وأصحابك نعمة»، فقال له سالم: أن أردت النجاة غداً من عذاب ﷲ، فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: أن أردت النجاة غداً من عذاب ﷲ، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ثم مُتْ متى شئت، وأني أقول هذا وأخاف عليك أشد الخوف يوم تَزِلُّ الأقدام، فهل معك رحمك ﷲ مثل هولاء القوم، أو من يأمرك بمثل هذا؟ فبكي هارون الرشيد بكاء شديداً، فقلت للفضيل: أرفق بأمير المؤمنين فإنه رقيق القلب، فأجابني قائلاً: يا ابن الربيع، قتلته أنت وأصحابك وترجوني أن أرفق به؟

ولما أفاق هارون الرشيد من بكائه ماذا قال للفضيل؟ لم يضعه في السجن؟ ولم يأمر بقتله على الفور؟ ولم يوضع تحت الإقامة الجبرية؟ ولم يُفصل من وظيفته؟ بل قال: يا فضيل زدني فقال الفضيل: يا أمير المؤمنين، بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز، شكا إليه سَهَر العامل وغفلته عن الرعية؛ فكتب إليه عمر بن عبد العزيز يقول: يا أخي اذكر سَهَر أهل النار في النار وخلود الأبد، فإن ذلك يأخذ بك إلى ربك نائما ويقظان، وإياك أن تزِلّ قدمك عن هذا السبيل فيكون أخر العهد بك انقطاع الرجاء منك، فلما قرأ العامل، كتاب عمر بن عبد العزيز، طوى البلاد إليه حتي قدم عليه فقال له عمر: «ما أقدمك ؟» فأجاب: «لقد خلعت قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين، لا وُليت ولاية أبدا حتى ألقي اللَّهَ عز وجل»

فبكي هارون الرشيد بكاء أشد من الأول ثم قال للفضيل بن عياض زدني، فقال الفضيل: يا أمير المؤمنين إن العباس عم النّبيّ ﷺ جاء إليه فقال: يا رسول اللَّهَ أمِّرْني إمَارة، فقال النّبيّ له «يا عباس نفس تُحييها خير من إمارة لا تُحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل» فبكي هارون الرشيد بكاءاً شديداً ثم قال له: زدني يا فضيل يرحمك اللَّهَ فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك اللَّهَ عن خلقه يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك

أن تصبح وتمسي في قلبك غش لرعيتك، فإن النّبيّ ﷺ قال: «من أصبح غاشاً لرعيته لم يُرح رائحة الجنة» فبكى الرشيد بكاء شديدا فلما أفاق من البكاء قال للفضيل جزاك اللهُ عنى خيراً، يا فضيل أعليك دين؟ فقال الفضيل للرشيد نعم، على دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن ناقشني، والويل لي إن سألني، والويل لي إن لم يُلْهِمني حُجَّتي فقال الرشيد: يا فضيل، إنما أعني دين العباد فقال الفضيل: ربي لم يأمرني بهذا وإنما أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال الرشيد: إذن فهذه ألف دينار، فخذها وأنفقها على عيالك، وتقَوّى بها على عبادة ربك، فقال الفضيل سبحان اللهُ أنا أَدُلُّك على سبيل الرشاد وأنت تكافئني بمثل هذا، سلمك اللهُ ووفقك، ورفض الفضيل أن يأخذها قال الفضيل بن الربيع –وزير الرشيد– ثم سكت الفضيل ولم يكلمنا فخرجنا من عنده فقال ليَ الرشيد، إذا دللتني على رجل فدللني على مثل هذا الرجل، أرأيتم رجلا مثل هذا؟ أسمعتم عن أمير مثل هذا؟ فواعجباً لعالم رباني مثل الفضيل، وأعجب منه لأمير سمع منه مثل الرشيد أنصت إليه؛ بل وبكى لموعظته، أين نحن منهما.

ورحل البطل

كان الرشيد صاحب قوة إيمانية جعلته يجاهد في سبيل اللهُ، يحج عاماً ويغزو عاماً، ويفعل من الخيرات والطاعات ما لا يستطيع

غيره فعله، فلا عجب أبدا أن يموت وهو في طريقه إلى الجهاد في سبيل ﷲ، كان يعلم هذا الحديث الشريف «من لم يغزو أو تحدثه نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»، وكان يعلم «من جهز غازيا في سبيل ﷲ فقد غزا ومن خَلف غازيا في أهله بخير فقد غزا»

فقد رأي رؤية قبيل وفاته كفا به تربة حمراء، وقائلاً يقول له هذه تربة أمير المؤمنين التي سَيُدفَنُ فيها، فلما سار ذات مرة إلى خراسان -أرض من الثغور- مر رحمه ﷲ (بطوس) فمرض بها فقال لخادمه: ايتني بشيء من تربه هذه الأرض، فجاءه بتربة حمراء في يده فلما راءها قال: والله هذا الكف الذي رأيته في المنام والتربة التي كانت فيها فأمر -رحمه ﷲ- بتجهيز القبر في حياته وأن تُقرأ فيه ختمة للقرآن تامة، فلما فرغوا قال لهم احملوني إلى قبري فحُمِل حتى وصل إليها، فقال: ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه، ثم قال إلى هنا تصير يا ابن ادم، وبكى رحمه ﷲ بكاء شديدا ثم قبض بعد ثلاث ليالٍ. وذلك في جمادى الآخرة سنة ٤٩١هجرية رحمه ﷲ وجعل الجنة مثواه وجمعنا ﷲ وإياه في الجنة مع النّبيّين والصديقين والشهداء.

• • •

ترجمان الرسول

زيد بن ثابت الأنصاري من بني النجار أخوال رسول ﷺ، كان يتيماً يوم قدم الرسول للمدينة (توفي والده يوم بُعاث).

رده النبي ﷺ في غزوة بدر لصغر سنه وجسمه، وفي غزوة أحد ذهب مع جماعة من أقرانه إلى الرسول يرجون أن يضمهم للمجاهدين، ونظر إليهم الرسول شاكرًا وكأنه يريد الاعتذار، ولكن رافع بن خديج وهو أحدهم تقدم إلى الرسول الكريم وهو يحمل حربة ويستعرض بها قائلا: إني كما ترى، أجيد الرمي فأذْن لي، فأذن الرسول له، وتقدم سمرة بن جندب، فحياه الرسول وأذن له.

وبقي مجموعة منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر، بذلوا جهدهم، لكن أعمارهم صغيرة، وأجسامهم غضة، فوعدهم الرسول بالغزوة المقبلة، وجاءت الخندق فأجازه النبي فيها وهكذا بدأ زيد بن ثابت مع إخوانه دوره كمقاتل في سبيل ﷺ بدءًا من غزوة الخندق، سنة خمس من الهجرة.

وكانت مع زيد راية بني النجار يوم تبوك، وكانت أولاً مع عُمارة بن حزم، فأخذها النبي منه فدفعها لزيد بن ثابت فقال عُمارة: يا رسول ﷺ بلغكَ عنّي شيءٌ؟! قال الرسول: «لا، ولكن القرآن مقدَّم، وزيد أكثر أخذا منك للقرآن».

الرسول يُقدمه

عن عامر قال: كان فداء أهل بدر أربعين أوقية، فمن لم يكن عنده مال عَلَّم عشرة من المسلمين الكتابة فكان زيد بن ثابت ممن تعلم، فكان مثقفًا متنوع المزايا، يتابع القرآن حفظاً، ويكتب الوحي لرسوله، ويتفوق في العلم والحكمة، وحين بدأ الرسول في إبلاغ دعوته للعالم الخارجي، وإرسال كتبه لملوك الأرض وقياصرته، أمر زيدا أن يتعلم بعض لغاتهم فتعلمها في وقت وجيز.

يقول زيد بن ثابت: أُتِيَ بي النبي عند مَقْدَمه المدينة، فقيل: هذا من بني النجار، وقد قرأ سبع عشرة سورة، فقرأت عليه فأعجبه ذلك، فقال: «تعلّمْ كتاب يهود، فإنّي ما آمنهم على كتابي». ففعلتُ، فما مضى لي نصف شهر حتى حَذِقْتُهُ، فكنت أكتب له إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأتُ له وأترجم بينه وبينهم.

وعن ثابت بن عبيد عن زيد بن ثابت قال: قال لي رسول الله ﷺ: « أتحسن السريانية؟» قلت: لا، قال: «فتعلمها فإنه تأتينا كتب» قال فتعلمتها في سبعة عشر يومًا، قال الأعمش كانت تأتيه كتب لا يشتهى أن يطلع عليها إلا من يثق به، من هنا أطلق عليه لقب ترجمان الرسول.

شيخ القرّاء

منذ بدأت الدعوة وخلال إحدى وعشرين سنة تقريباً كان الوحي يتنزل، والرسول يتلو، وكان هناك ثلة مباركة تحفظ ما تستطيع،

والبعض الآخر ممن يجيدون الكتابة، يحتفظون بالآيات مسطورة، وكان منهم عليّ بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت، وبعد أن تم النزول كان الرسول يقرأه على المسلمين مرتبا حسب سوره وآياته، وقرأ زيد بن ثابت على رسول ﷺ في العام الذي توفيَ فيه مرتين، حتى سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت لأنه كتبها لرسول ﷺ وقرأها عليه، وشَهِدَ العرضة الأخيرة، وكان يُقرئُ الناس بها حتى مات.

مهمة لها العظماء

بعد وفاة الرسول؛ شُغل المسلمون بحروب الردة، وفي معركة اليمامة كان عدد الشهداء من حفظة القرآن كبير، فما أن هدأت نار الفتنة حتى فزع عمر بن الخطاب إلى الخليفة أبو بكر الصديق راغبًا في أن يجمع القرآن قبل أن يدرك الموت بقية القراء والحفاظ، فاستخار الخليفة ربه، وشاور صحبه ثم دعا زيد بن ثابت وقال له إنك شاب عاقل لا نتهمك، ثم أمره أن يبدأ جمع القرآن مستعينا بذوي الخبرة.

ونهض زيد بالمهمة وأبلى بلاء عظيما فيه، يقابل ويعارض ويتحرى حتى جمع القرآن مرتبا منسقا، وقال زيد في عظم المسئولية: «والله لو كلفوني نقل جبل من مكانة، لكان أهون على مما أمروني به

من جمع القرآن، فكنتُ أتتبع القرآن أجمعه من الرّقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال»، وأنجز المهمة على أكمل وجه وجمع القرآن في أكثر من مصحف.

وفي خلافة عثمان بن عفان كان الإسلام يستقبل كل يوم أناساً جدداً يدخلون فيه، مما أصبح جليا إمكانية أن يفضي إليه تعدد المصاحف من خطر، حين بدأت الألسنة تختلف على القرآن حتى بين الصحابة، فقرر عثمان والصحابة وعلى رأسهم حذيفة بن اليمان ضرورة توحيد المصحف، فقال عثمان: مَنْ أكتبُ الناس؟ قالوا: كاتب رسول اللهﷺ زيد بن ثابت. قال: فأي الناس أعربُ؟ قالوا: سعيد بن العاص، وكان سعيد بن العاص أشبه لهجة برسول اللهﷺ، فقال عثمان: فليُملِ سعيد وليكتب زيدٌ، فجمع زيد أصحابه وأعوانه وجاءوا بالمصاحف من بيت حفصة بنت عمر رضي اللهﷺ عنها، وباشروا مهمتهم الجليلة، وكانت كلمة زيد هي الحجة والفيصل رحمهم اللهﷺ أجمعين

حتى قال عنه ابن عباس رضي اللهﷺ عنهما: «لقد علم أصحاب محمد أن زيد بن ثابت كان من الراسخين في العلم».

أهل الفضل

تألقت شخصية زيد وتبوأ في المجتمع مكانة عالية، وصار موضع احترام المسلمين وتوقيرهم، حتى أنه ذات مرة ذهب ليركب دابته،

فأمسك ابن عباس بالركاب، فقال له زيد بن ثابت تنح يا ابن عم رسول ﷺ، فأجابه ابن عباس: لا، فهكذا نصنع بعلمائنا، فقال زيد ناولني يدك فقبّل زيد يد ابن عباس وقال وهكذا نفعل بآل بيت نبينا.

قال عنه ثابت بن عبيد: «ما رأيت رجلا أفكه -من الفكاهة-في بيته، ولا أوقر في مجلسه من زيد».

مواقف من حياته

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما توفي رسول ﷺ قام خطباء الأنصار فجعل الرجل منهم يقول يا معشر المهاجرين إن رسول ﷺ كان إذا استعمل رجلا منكم قرن معه رجلا منا فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان أحدهما منكم والآخر منا، قال: فتتابع خطباء الأنصار على ذلك فقام زيد بن ثابت فقال يا قوم: إن رسول ﷺ كان من المهاجرين وإن الإمام يكون من المهاجرين ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول ﷺ، فقام أبو بكر فقال جزاكم ﷺ خيرا يا معشر الأنصار وثبت قائلكم، ثم أخذ زيد بن ثابت بيد أبي بكر فقال هذا صاحبكم فبايعوه، فتتابعوا يبايعون أبا بكر.

وكان عمر بن الخطاب يستخلفه على المدينة إذا حجّ، ولِما لزيد من مكانة عالية رفعه بها القرآن كان الصحابة يُجِلّونه أيّما

إجلال، لهذا جعلوه يتولى قسمة الغنائم يوم اليرموك، كما كان أحد أصحاب الفَتْوى الستة عمر وعلى وابن مسعود وأبيّ وأبو موسى وزيد بن ثابت، فما كان عمر ولا عثمان يقدّمان على زيد أحداً في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول ﷺ «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في ﷺ عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقرؤهم لكتاب ﷺ أبي بن كعب وأفرضهم أي أعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ألا وان لكل امة أمينا وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[1]

قال ابن سيرين: «غلب زيد بن ثابت الناس بخصلتين، بالقرآن والفرائض»

توفي سنة ٤٥ هـ في عهد معاوية، قال أبو هريرة لما مات زيد: مات اليوم حبر هذه الأمة، ولعل ﷺ يجعل في ابن عباس منه خلف.

• • •

(١) رواه الترمزي

ورحل القارئ

للأسرة دورها العظيم في تربية النشء نرى ذلك واقعاً من خلال هذه الصورة المشرقة في عصرنا الحاضر صاحب الصوت الشجيّ، الشيخ محمد صديق المنشاوي، ولد سنة ١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م بقرية المنشأة بمحافظة سوهاج بمصر، من أسرة قرآنية كابرًا عن كابر؛ فوالده الشيخ صديق المنشاوي، مجوّدًا للقرآن، وبه اشتهر، وقد ورث الشيخ محمد صديق المنشاوي عن هذه السلالة المباركة تجويد القرآن وترتيله.

ألحقهُ والده منذ وقت مبكر من عمره بكُتَّاب القرية وكما قيل: «عّلم ابنك القرآن والقرآن يعلّمه كل شيئ»، وكان شيخه يشجعه ويحفزه دائماً ويتعهده بالعناية والرعاية، لِمَا لمس منه من سرعة في الحفظ، وقوة في الحافظة، عِلاوة على حلاوة الصوت وهذا هو دور الشيخ والأستاذ المربّي لطلابه؛ وبعد فضل اللهُ وحده ثم لذكائه وتعاهد شيخه وأسرته له، يمن اللهُ عليه بحفظ القرآن الكريم ولما يبلغ الثامنة من عمره، وهذا هو دورنا جميعا نحو أولادنا فلَذَاتُ أكبادنا.

بعد مرور الأيام والأعوام ذاع صيت الشيخ وبدأ بحسن تلاوته للقرآن يشتهر في كل مكان، لما عُرِف عنه من حُسْن قراءة،

وسلامة أداء، فأصبح حديث الناس في مصر؛ ثم عُرِض عليه الحضور للإذاعة من أجل اختياره قارئًا في الإذاعة، لكنه رفض ذلك العرض، فاضطرت الإذاعة بنفسها أن تحضر إليه في إحدى المناسبات التي كان يقرأ فيها، ثم سجلت له ما تيسر من القرآن الكريم، ومن ثمّ اعتماده قارئًا في الإذاعة على إثر ذلك بعد طول رفض منه.

ثم انتقلت شهرة الشيخ المنشاوي خارج مصر، وعلى إثرِ ذلك تلقي العديد من الدعوات والطلبات من الإذاعات في كل أنحاء العالم بل ومن الدول للقراءة فيها، فاستجاب لِمَا يسره اللَّهُ له، فزار إندونيسيا بدعوة من رئيسها، وزار العديد من الدول العربية والإسلامية.

تميز الشيخ المنشاوي رحمه اللَّهُ في تلاواته القرآنية، بجمال وعذوبة صوته، وقوة الأداء إضافة إلى انفعاله العميق بالمعاني والألفاظ القرآنية والتي يلاحظها كل من يسمع له. وللشيخ المنشاوي تسجيل كامل للقرآن الكريم مرتلاً، وله أيضًا العديد من التسجيلات القرآنية المجودة.

ومن صفاته رحمه اللَّهُ أنه كان شديد التواضع، لين الجانب، عطوفًا على الفقراء والمساكين، آتياً للخير محباً له.

من المواقف التي تُذْكَر للشيخ، موقفه من الدعوة التي وُجِّهت إليه في عهد الرئيس عبد الناصر، إذ وجَّه إليه أحد الوزراء الدعوة قائلاً

له: سيكون لك الشرف الكبير بحضورك حفلاً يحضره الرئيس عبد الناصر، فما كان من الشيخ إلا أن أجابه قائلاً: ولماذا لا يكون الشرف لـ عبد الناصر نفسه أن يستمع إلى القرآن بصوت محمد صديق المنشاوي، ورفض أن يلبي الدعوة.

أفنى الشيخ المنشاوي رحمه اللَّهُ حياته قارئًا لكتاب اللَّهُ، حتى وافته المنية بعد مرض شديد ألـمَّ به، وكان ذلك سنة ١٣٨٨هـ -١٩٦٩م، ولَمَّا يتمَّ الشيخ الخمسين من العمر.

• • •

أسد المنابر

ولد الشيخ عبد الحميد كشك في مارس ١٩٣٣م في بلدة شبراخيت بمحافظة البحيرة لأسرة فقيرة جداً، وقد ولد سليم البصر إلا أنه فقد بصرة على يد حلاق القرية في السادسة من عمره، عندما أصيب برمد صديدي في عينيه، وقد حفظ الشيخ رحمه اللهُ القرآن الكريم كاملاً في سن مبكرة، وبعدها بسنوات فقد البصر تماماً، ولكن اللهُ عوضه بنور البصيرة، وحسن البديهة، وفصاحة اللسان، وقوة الحجة، فصعد المنبر وهو في السادسة عشرة من عمره، فَمَلك بكلماته قلوب الحاضرين، والذين التفوا حوله وشجعوه على هذا، وسمعوا له وأحبوه.

مسيرةٌ علمية:

التحق الشيخ بكلية أصول الدين والدعوة، وتخرج عام ١٩٦٢م وعين بوزارة الأوقاف خطيباً لمسجد المنوفي بحي الشرابية بالقاهرة، ثم عين بمسجد الطيبي بزين العابدين، وبعد ذلك نقل إلى مسجد الملك بحدائق القبة، وضاق المسجد بالمصلين الذين جاءوه من كل حدب وصوب، يستمعون إلى خطب الشيخ، ودروس العلم التي كان يلقيها بهذا المسجد فتبرع أناس من أهل الخير بحديقة بجوار المسجد ليسع المسجد المصلين.

كان من الأوائل على الجمهورية في جميع مراحل التعليم سواء كان الثانوي أو الجامعي، إلّا أنه لم يصبه دوره بأن يكون معيدا بالكلية، وذلك لقوله لكلمة الحق ووقوفه في وجوه الطغاة، أعاد الشيخ كشك للمسجد مكانته، فصار منارة العلم وقلعة للدفاع عن المظلومين وقد تناولت خطب الشيخ كثيراً من أمور الحياة العامة والمشاكل التي يتعرض لها المواطنون المغلوب على أمرهم في كثير من بلاد المسلمين، وطاف بالبلاد داعياً إلى اللَّهُ على بصيرة.

وبدأت المحن

وفي أغسطس عام ١٩٦٥م هبت رياح الحرب على الإسلاميين، فعصفت بهم في غياهب السجون المصرية والمعتقلات، واعتقل الشيخ كشك ضمن من اعتقلوا، عقب زواجه بشهور قليلة وأودع سجن القلعة حيث كانت تجري عمليات التعذيب البشعة لكل من تفوح منه رائحة الإسلام أو من يريد أن يجعل الإسلام حقيقة عملية، وسلوكاً وخلقاً يتخلق به أصحابه والعاملين له، كان هذا الظلم على يد حمزة البسيوني، وصلاح نصر، وشمس بدران، وغيرهم من زبانية التعذيب، وتعرض الشيخ للعذاب النفسي والجسدي، لكنه صبر واحتسب، فقد كان من وسائل التعذيب التي اخترعها هؤلاء الظلمة قساة القلوب غلاظ الأفئدة، الذين ما عرفت قلوبهم الرحمة كانوا يضعونه ومعه كل من كان من الدعاة الذين قالوا ربنا اللَّهُ ثم استقاموا، في سجون وظروف غير ملائمة

حتى بغير الآدميين، وكل ذنبهم وجُرمهم أنهم امنوا بالله العزيز الحميد وأرادوا أن يبلغوا دعوة ربهم[1]

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[2]

وكما يصور العالم الجليل الدكتور يوسف القرضاوي الذي وُضِعَ بين شقي رحى السجن الحربي مع الشيخ كشك، ويصور ما شاهده من مناظر وما رأي من أذىً وفنوناً للتعذيب وإن القلوب لتنفطر عندما تسمع ما يقوله هذا العالم في شأن ما جرى لهم خلف قضبان السجن الحربي.

يقول الشيخ القرضاوي:

في ساحة الحربي حسبك باسمه ... من باعث للرعب قد طرحوني
ما كدت ادخل بابه حتى رأت ... عيناي ما لم تحتسبه ظنوني
في كل شبر للعذاب مناظر ... ينـدي لها والله كل جبيني
فترى العساكر والكِلابُ مُعَدَّةً ... للنَّهشِ طَوْعُ القائد المفتون
هذى تَعُضُّ بنابها وزميلِها ... يعدو عليك بسوطه المسنون
ومضت علينا دقائق وكأنها ... مما لقيت بهنّ بضع سنين[3]

ويصف هؤلاء الوالغين في الدماء، الهاتكين للأعراض، الذين مزقوا

(١) انظر عبد الحميد كشك في رحاب الرثاء والوفاء أ/ محمد عيد السمان.

(٢) سورة البروج - الآية ٨

(٣) هذه الأبيات من ديوان نفحات ولفحات ومن قصيدة ملحمة الابتلاء د/ يوسف القرضاوي

بأسواطهم الأجساد الطاهرة فيقول فيهم:

أتُرى أولئك ينتمـــــــــون لأدم ... لا بل هم ملاعين بنو ملعون

تالله أين الآدميـة منهـــــــــمو ... من قتل «محمود» ومن «ياسين»

ومن «حمزة» ومن «دياب» و«مصطفي» ... و«حمادة» و«عطية» و«أمـين»

لا تحسبوهم مسلمين من اسمهـــــم ... لا ديـن فيهم غير سب الدين

يقول الشيخ عبد الحميد كشك وهو يروي بعض مذكراته في السجن: «قبل الفجر فتح بابُ الزنزانة وصاح أحد الجلادين إذا سمعت صوت الزنزانة، فقم واقفاً بلا تردد، فقال له أحد المرافقين أنه كفيف، فأخذني من يدي إلى مكان التحقيق وجلست أمام المحقق فقال لي هل سبق لك أنك أديت الحج أو العمرة؟ قلت: لا فقال: هل اسلم على يديك بعض النصارى؟ قلت: نعم، ومن هذه الأسئلة التي يحاولون من خلالها إلصاق أي تهمة بي ليبرروا اعتقالهم لي.

وقد لقي الشيخ من المتاعب والأعباء ما تنوءُ الجبال بحمله ولكنه صبر وتحمل، واحتسب أجره عند اللهﷻ، وبعد فترة نقل الشيخ الفاضل الكفيف إلى سجن أبي زعبل، وبعد أربع سنوات من الاعتقال تم الإفراج عنه، وحينئذ عرض على الشيخ كشك نقود من وزير الداخلية آنذاك فرفض، وقال قولةً تهتز لها الجبال وترجف لها القلوب والأفئدة فقال له الشيخ كشك بكل شموخ وعزة:

«فوالله لنزح ماء بحرين بغربالين خير لي أن أقف على بابٍ غير باب الله يضيع فيه ماء وجهي، ارجع بمالك فلا حاجة لي إلى أحد غير الله»

إنها عزة النفس، والترفع عن مواضع الذلة والمهانة.

سبحان الله؛ مع مَن يتكلم الشيخ؟ إنه يتكلم مع من وضعه ومَن معه من الصالحين تحت وطأة التعذيب بالسياط وعرضوهم للكلاب التي كانت تأكل من لحومهم وهم أحياء وإلى شمس الصحراء المحرقة حتى يخرج من أجسادهم الدود وهم أحياء، ولاقوا من الأذى والتعذيب مالا يطيقه إلا الشوامخ من الرجال، فأنعِم به من شيخ، كان كثيرا ما يُردد قول النبي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مَائِلاَتٌ مُمِيلاَتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»[1]

والمراد بهم: من يتولى ضرب الناس بغير حق من ظَلَمَة الشُّرَط أو من غيرهم، سواء كان ذلك بأمر الدولة أو بغير أمر الدولة قال النووي: «فأما أصحاب السياط فهم غلمان الوالي»

وقال السخاوي: «وهم الآن أعوان الظلمة ويطلق غالباً على أقبح جماعة الوالي، وربما توسع في إطلاقه على ظلمة الحكام»

(١) رواه مسلم

لا دين يردع لا ضمير محاسب لا خوف شعب لا حمي قانون

ورحل الفارس

يقص أحد أبناء الشيخ قصة وفاته فيقول:

«منذ أربع أشهر تقريباً كان والدي يجلس معي وأثناء الحديث الذي دار بيننا قال يا بني: انني لن اقضي رمضان القادم معكم !! فقلت له وأين ستقضيه يا أبي ؟ فأجاب بلسان التعجب ومنطق الحق المبين سوف أقضيه أن شاء اللّٰهُ عند أكرم مسئول وخير مأمول.. عند رب العالمين»

فقلت له إن أمامك يا أبي عُمْرٌ طويل فأجاب قائلا اقسم بالله أنني سأقضي رمضان القادم إن شاء اللّٰهُ عند رب العالمين.

وتحدث من بعدي إلى شقيقي الأكبر فقال له: أن نبينا محمد ﷺ مات وله من العمر٣٦ عام، وأنني أيضا سأموت في نفس عُمْر الرسول ثلاث وستون سنه مثل النبي الكريم وأبو بكر وعمر رضي اللّٰهُ عنهما.

يحكي أحد أولاده يقول: وفي صبيحة يوم الجمعة السادس من ديسمبر ١٩٩٦م، اليوم الذي توفي فيه والدي توضأ ثم قال لوالدتي ضعي بعضاً من ملابس الأطفال في حقيبة، لأن هناك شخصاً مسكيناً قد اتصل بي وأبلغني بأن البرد قارس وإذا حضر أثناء صلاتي فأعطيه الملابس، ثم دخل في صلاته فأطال في السجدة الأخيرة فاقتربت والدتي منه لتتابع أصوات أنفاسه فوجدت أن

قضاء ﷻ قد نفذ وأن روحه الطاهرة قد فارقت جسده.

وكان دائما يردد:

فليت تحلو والحياة مريـــــــرة وليتك ترضي والأنام غضـاب
وليـت الـذي بيـني وبينـك عامـر وبيـني وبـين العالمين خـراب
إذا صح منك الود فالكـــل هـين وكل الذي فـــوق التراب تـراب

فرحم ﷻ الشيخُ كشك على ما قدم من نصح للمسلمين ورحم ﷻ كل علماء المسلمين العاملين للإسلام الداعين له المهمومين بقضايا المسلمين المدافعين عنهم.

وصدق ﷻ العظيم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تبْدِيلًا﴾[1] لينظر شباب الأمة إلى هذه الأمثلة الرائعة لشباب في سنهم، ليعلموا أن طاقات الشباب أوسع بكثير من تخيلاتهم، وأن أحلام وأهداف الشباب يجب أن تكون على مثل هذا المستوى الراقي في التفكير.. حتى يرتقوا بأنفسهم وأمتهم وشبابنا قادرون على هذا فأمة الإسلام أمة ولود تمرض لكنها لن تموت.

• • •

(١) سورة الأحزاب - الآية ٢٣

أيها شباب

قبل أن نبدأ في تفصيل الأسباب التي جعلت بيننا وبين من سبقونا من العظماء فجوة، كأنهم أمة غير أمتنا، نذكر أنفسنا بأن القرآن الذي صنعهم وجعلهم قادة للأمم بعد أن كانوا رعاة للغنم، هو القرآن الموجود بين أيدينا الآن، والسُّنة هي السُّنة؛ وهذه الكلمات ليست من باب التثبيط للهمم أو دعوة للإحباط وأننا لا نستطيع أن نكون مثلهم.

بل هي من باب أن نعرف أخطاءنا وما عندنا من سلبيات أو نقائص فنعرفها ومن ثَمّ نتعلم منها ونأخذ منها الحافز الذي يجعلنا لا نقع فيها، ولا بد لنا أن نعلم تمام العلم أنه قد يأتي الخير الكثير من الشر الذي نراه شراً ونكرهه، فالقاعدة العامة ما قاله لنا ﷺ: (كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) وكما قال الأول: (ومَن من البشر لا يخطئ) فمن جهلنا نخطئ ولكن من أخطائنا نتعلم، فإذا الإنسان لا يعرف أخطاؤه التي وقع فيها لن يتعلم منها، ومن ثم سيقع حتماً فيها مرات ومرات، لهذا فلابد وأن نضع أيدينا على الداء حتى نعطى له المناسب من الدواء، فالنقد البنَّاء هو الذي يُصحح البناء، لذلك فلابد من الوضوح فيما تعتقد أنه سيبني بناءً صحيحاً، وبهذا نتبوأ مكانتنا التي تليق بنا بين الأمم.

ولنا أن نسئل أنفسنا أسئلة لابد منها، لماذا هذا التباين الرهيب بين ما عليه شباب أمة الإسلام الآن وبين ما يجب أن يكونوا عليه؟ هل يا تُرى هذه هي كل إمكانيات الشباب أم أنهم تعودوا على الترف والدعة؟ تُرى لماذا هذا الفرق الكبير بين تاريخنا الماضي وواقعنا الحاضر؟ وما هو الحلّ الأمثل لما نحن فيه الآن؟ فالسعيد من وعظ بغيره وتعلم من أخطائه وأخطاء السابقين، إنه ومن المؤكد أن ما نحن فيه ليس من الشباب وحدهم، ولكنه خطأ مركب، فهناك بالتأكيد جانب من الخطأ على الشباب وجانب على مَن بيده الأمر من آباء أو الحكام، وها نحن نعرض بعض من أهم الأسباب والتي تحتاج إلى عمل متواصل، وشغل مستمر، وتجميع للجهود، واستنهاض للهمم، واستفراغ للطاقات، ومن الجميع بلا استثناء، وذلك حتى نبني ما هُدم، ونعالج ما بنا من أمراض، وننتبه لما كنا نغفل عنه، ونأخذ الموعظة من الأمم التي حل بها ما حل من انحلال أخلاقي وبُعد عن الفضائل وارتكاب لكل الرذائل فالكارثة الكبرى، والمصيبة العظمى، والتعاسة كل التعاسة لأمة أغلب شبابها تائه غافل يتخبط على غير هدي، وها هي بعضا من الأسباب، وشيئا من الحلول العملية والواقعية، وذلك حتى نتكاتف جميعاً في حلها.

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون..

قلة الاعتناء بالتاريخ

إذ التاريخ هو ذاكرة الأمة، والذاكرة للأمة كالذاكرة للفرد تماماً، بها تعي الأمة ماضيها، وتفسر به حاضرها، وتستشرف به مستقبلها.

قالوا عنه..

يقول الدكتور عبد العظيم الديب:

والإنسان الذي يفقد ذاكرته يرتد -على ضخامة جسمه- طفلاً لا يعي شيئاً حوله، عاجزاً أن يبصر في نفسه، أو يشعر بيومه، أو يتطلع إلى غَدِهْ، وكذلك الأمة حيث يضيع منها تاريخها ويُشوش في عقول أبنائها، عندئذٍ يضيع منها الطريق، وتسلم مِقْوَدها لمن يوجهها، والتاريخ ليس علم بالماضي وفقط بل هو علم الحاضر والمستقبل في واقع الأمر وحقيقته، فالأمة التي تستطيع البقاء هي التي لها تاريخ تعي به ماضيها وتفسر عن طريقه حاضرها وتستشرف مستقبلها»[1]

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي: «إن التاريخ يوسع أفق المسلم، ويطلعه على أحوال الأمم، وتاريخ الرجال، وتقلبات الأيام، فيرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سُنة الله في المجتمعات بلا محاباة ولا جور؛ كيف ترقي الأمم وكيف تهبط؟ ما سر قيام الدول

(١) انظر الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي.

وما سبب سقوطها؟ ولماذا تنتصر الدعوات وكيف تُهزم؟ كيف تبقى الحضارات وما سر ضياعها؟ كيف ينجح القادة ولماذا يفشلون؟؟.

إن التاريخ يا شباب المسلمين كثيراً ما يُعين على فَهم الواقع المائل، ولا سيما إذا تماثلت الظروف، وتشابهت الدوافع، لهذا قال العرب قديماً: ما أشبه الليلة بالبارحة! والتاريخ يعيد نفسه.

إن التاريخ –يا شباب الإسلام– ليس مجرد أقاصيص تحكي، ولا مجرد تسجيل للوقائع والأحداث، إنما يُدْرَسُ للعبرة والعظة ولتربية الأجيال[1].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾{الأعراف/٦٧١}

يقول الدكتور على الصلابي: «.. إنني كلما توغلت في دراسة التاريخ ازددت قناعة بأهميته في تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، وبناء الدول، ومحاربة الباطل، وإزالة الظلم، ونشر العدل، وقد أيقنت أن الأيام دول وأن الأحداث تتكرر على اختلاف ما يكون في الزمان أو في المكان، ولكنها تتكرر في إطارها العام، والتاريخ يمد القارئ بخصائص وسِمَات الأحداث فيَسْهُل عليه الاتعاظ والاعتبار بأحوال الدول والشعوب والأمم

(١) الأستاذ محمد قطب.

بل والجماعات[1].

ويقول الشيخ الأنبالي: «... كما أن دراسة السيرة النبوية الشريفة، والاطلاع على غزوات النبي ﷺ وأيامه، والنظر في حياة الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم أجمعين ومدارسة جوانب سيرهم وأخبارهم، لهو وبحق خير زاد للمسلم في حياته، وللداعية إلى الله بوجه خاص ولقد عشتُ برهة من الدهر أتأمل أساليب دعوة النبي ﷺ وما أحاط بها من ظروف، خلال العهد المكي ثم العهد المدني، وما وَصَلَتْ إليه خلال انتشارها، حتى عصور متأخرة[2].

وأقول إن قرَاءة التاريخ بصفة عامة وتاريخنا الإسلامي بصفة خاصة وسيرة سلفنا الماضي الذين صنعهم الإسلام والقرآن لهو خير معين على تقويم أنفسنا أفراداً وجماعات ودول، فهذا سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول: «كان الرجل منا يعلم ابنه الغزوة من الغزوات كما يعلمه السورة من القرآن».

يجب أن يعلم الجميع أن التاريخ فرعٌ مهمٌ من فروع العلم الشرعي، وقد اعتبره العلماء الذين كتبوا فيه من العلوم التي تخدم الشريعة الإسلامية، سواء أكان من الناحية التفسيرية للنصوص، أو معرفة أحوال الرواة أو طبقاتهم ومن رووا عنه ومن روى عنهم، ويقرر هذه الحقيقة ويحث عليها الإمام المحدِّث ابن عبد البر النُّميري رحمه الله بقوله: «ويلزم صاحب الحديث أن يعرف أحوال الصحابة

(١) الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا د/ علي محمد الصلابي.

(٢) تراجم شهداء بدر " لأحمد بن سعيد الأنبالي" دار بن حزم ط أول ١٩٩٩م .

والآخذين للدين عنهم وعن نبيهم ﷺ ويعنى بسيرهم وفضائلهم ويعرف أحوال الناقلين عنهم وأيامهم وأخبارهم، حتى يقف على العدول منهم من غير العدول»[1].

كما لا يخفي أن التاريخ قد نشأ ضمن العلوم الشرعية وعلى أيدي رجال الحديث وصلته بالشريعة وخدمته للشريعة كانت واضحة جليلة، لذلك قال الثوري: «لم يُستعنْ على الكذابين بمثل التاريخ»، وقال: «لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ»، حتى ألَّف العلماء والمؤرخون كتباً كثيرة في التاريخ بأنواعه حتى من المحدثين من أمثال البخاري ومسلم وأبي حاتم الرازي والترمذي وابن حنبل وبن كثير وبن الأثير وغيرهم، كذلك ألَّف البعض منهم في التاريخ بمنهج معين كتراجم ومعاجم للعلماء في قرن أو قرون أو بلاد بعينها ومن هؤلاء ابن عساكر وبن حجر العسقلاني والسخاوي.. وغيرهم كثيرين من العلماء، لهذا يتبين لنا أن دراسة التاريخ لابد منها لإحياء الأمة المسلمة والخروج بها من كبوتها بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ومعرفة كيفية التعامل مع السنن الكونية لنهوض الأمم وسقوطها، فالقرآن يحثّنا على النظر في تاريخ الأمم فيقول جل وعلا: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾{غافر/٢٨}

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله نقلا عن صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي د/ الصلابي ج١ ص١٧ بتصرف.

لماذا ندرسه؟

القرءان يحثنا على قراءة التاريخ والاستفادة منه، ولو نظرنا في القرآن نجد أن القرآن يحدث النبي ﷺ بتاريخ الأنبياء السابقين فيقول سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾{الأنعام/٠٩} وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾{هود/٩٤} كذلك لو نظرنا للقرآن وهو يربي الأمة في شخص الرسول ﷺ بالتصريح تارة وبالتلميح أخرى فيبين لهم عاقبة الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم، فيقول سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾{محمد/٠١}

فها هو القرآن يا شباب الإسلام يبين أن الاقتداء بالنبيين والصالحين والعلماء العاملين والدعاة المخلصين في صبرهم وجهادهم وتحملهم المشاق في سبيل نصرة عقيدتهم، وإقامة الدين القويم، وهو عامل أساسي من عوامل التربية الإسلامية الراشدة والصحيحة، فالله يقول: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾{الأنعام/١١}، وقال لنبيه ومصطفاه ﷺ

فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل..، ولو بحثنا في كتاب ﷲ لوجدناه يقص علينا قصص السابقين ويُكثر الحديث عن الأمم الغابرة ومصائرهم ولماذا استحقوا اللعن والهلاك، وكيف تعاملوا مع سنن ﷲ الكونية، وتكذيبهم لأنبيائهم وتصديق بعضهم لهم، لهذا تكرر القصص في القرآن حتى يكاد أن يكون أكثر من ثلثه قصصا، وما ذلك إلّا لحِكَم ربانية تربوية لمن سيقرؤونها ممن نزل عليهم القرآن ومن بعدهم، لهذا يجب على الأمة عامة والشباب خاصة الاعتناء بدراسة التاريخ الإسلامي، وبالأخص السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين، وكيف صاروا في مقدمة الأمم، وأعظم الحضارات وأفضل المجتمعات، وأرقى الشعوب فكرا وأخلاقا وسلوكا، وهذا ما يحتاجه المسلمون الآن، يا شباب الإسلام واجب عليكم أن تعرضوا هذه الصور المشْرِقة المشَرّفة لأمتكم أمة الإسلام، تخلقوا بأخلاق القرآن واجعلوه صورة حية متمثلة في سلوك وأخلاق الإسلام الحقيقية أمثال آبائكم وأجدادكم، واعلموا أن القرآن يبعث في الأمة روح الأمل المفقود عند الكثير كما يبعث روح التدين والالتزام، القرآن قال ﷲ عنه لنبينا: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾{الشورى/٢٥}

السنن الكونية

دراسة التاريخ تجعل الإنسان يعرف سنن الله الكونية التي لا تحابي أحدا، ولا تجامل إنسانا مهما كان فليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب، فالنبيّ وهو أفضل الخلق وأحبهم إلى الله كُسرت رُباعيته، وشُج وجهه الشريف في أُحد، وكذلك الصحابة، وذلك لمخالفة البعض لأوامره ﷺ ولأنهم لم يأخذوا بأسباب النصر من طاعة للرسول، وتركٍ للمكان الذي يأتي منه العدو، وإذا ما درسنا التاريخ دراسة متمعنّة بإدراك وتفكير، ونحاول التعرف على هذه السنن وكيف نتعامل معها؟ وكيف نسخرها حتى نكون قادة للأمم ونرجع بإسلامنا إلى ما كان عليه أسلافنا الصالحين؟ وكيفية الاستفادة من هذه الأسباب لجعل الإسلام يعم بعدله البشرية، كما فعل السابقون من سلفنا الصالح حتى نعيد للإسلام مجده، ونعرف أسباب الانتصار فنأتيَها، وأسباب السقوط فنتجنبها، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ {الأنعام/١١}

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ {غافر/٢٨}

ويقول سبحانه للناس جميعاً: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ {فاطر/٣٤} ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ {الإسراء/٧٧}

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ {الأنعام/٦}

فالقرآن لما يتحدث عن هذه السنن التي حدثت مع الأنبياء أو مع أقوامهم، يحثنا على التعرف عليها، ومن هنا نُدرك أيها الشباب أن من أهم فوائد دراسة التاريخ وقراءته التعرف أن هذه السنن التي لا تتغير ولا تتبدل... فالتاريخ يكرر نفسه، فبقراءة التاريخ نعرف السنن الثوابت لله في خلقه فكأنك تقرأ المستقبل، فهناك أشياء قد حدثت من أو مع أقوام سابقين تتكرر كما هي مع اختلاف بسيط في الأسماء والأزمان، فدول سقطت، ودول نهضت، وأمم بادت ولم يبق من آثارها شيئا، وأمم حكمت نصف الدنيا تقريبا ردحاً من الزمن ثم بادت؛ فيا تُرى لماذا سقطت هذه الدول؟ وما أسباب سقوطها؟ وكيف نهضت الدول التي نهضت وما أسباب نهضتها؟ ومن هم الذين كانوا سبباً في نهضتها؟ وما هي أعمالهم

التي كانت سبباً في قيام دولهم؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة التي بدراستنا للتاريخ نستطيع أن نعرف أين نحن؟ وماذا نريد؟ وكيف نرتقي بأمتنا وكيف ننهض بها؟ إذن هذه الفائدة من أهم الفوائد لأننا لو عرفنا أن السنن الكونية لا تحابي أحدا مهما كان ولا تجامل إنسانا مهما أوتي وذلك حتى نعرف أخطاء هذه الدول التي سقطت فنتجنبها، فقد قرأ السابقون التاريخ واستفادوا منه[1]. مثال من القرآن لنعرف ما حدث للسابقين الذين أعرضوا عن ذكر ربهم، ولنعلم أننا إن فعلنا أفعالهم يصيبُنا ما أصابهم، فالقرآن يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ {الفجر ٦-١٤}

وهنا في هذه الآيات الكريمة يؤرخ القرآن لأمة الإسلام ويبين للمسلمين ما حدث للأمم السابقة، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في ظلاله «.. فأما المقسم عليه بذلك القسم والفجر فقد طواه السياق، ليفسره ما بعده، فهو موضوع الطغيان والفساد، وأخْذُ ربك لأهل الطغيان والفساد أخذ عزيز مقتدر، فهو حق واقع يقسم عليه الله بذلك القسم، وفيه تلميح يناسب لمسات

(١) انظر صفحات من التاريخ الإسلامي ص ٤٤ ج١ نقلًا عن تفسير التاريخ للدكتور عماد الدين خليل .

السورة الخفية على وجه الإجمال.. ألم تر كيف فعل ربك بعاد، فصِيغة الاستفهام في مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة والالتفات، والخطاب للنبي ﷺ ابتداءً ثم هو لكل من تتأتى منه الرؤية أو التبصر في مصارع أولئك الأقوام، وكلها مما كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه، ومما تشهد به الآثار والقصص الباقية في الأجيال المتعاقبة...، وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم فهذا مصرع قوم هود (عاد)، ثم مصرع ثمود الذين قطعوا الصخر وشيدوا قصوراً ثم مصرع فرعون ذي الأوتاد، إذ لما أكثروا الفساد، كان العلاج هو تطهير الأمة من الفساد والمفسدين، ثم يعقب صاحب الظلال ويقول: «وقد كان القرآن – لا يزال– يُعلِّم المؤمنين بهذه النماذج وغيرها وفق الحالات والملابسات والمتغيرات كما يُعِدّ القرآن نفس كل مؤمن لهذا وذاك على السواء لتطمئن على الحالين، بل وتتوقع الأمرين، وتَكِلُ كل شيء لقدر الله يجريه كما يشاء»[1].

فإذا ما تأملنا هذه الآيات الكريمة فإننا نجدها تقرر سنة من السنن الربانية والتي لا تحابي أحداً من خلقه ألا وهي سنة زوال الأمم بترفها وفسادها وظلمها، على غرار قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾{الإسراء/٦١}

(١) انظر في ظلال القرآن أ / سيد قطب ج ٦ ص ٣٩٠٤ بتصرف واختصار.

لهذا لو أننا نقرأ التاريخ عامة وتاريخنا الإسلامي خاصة، بوعي لعرفنا أسباب هلاك الأمم وأسباب نصرتها واستخلافها في الأرض فالله يقول:﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ {الرعد/١١} فالمؤمنون لو استقاموا على منهج الإسلام، فإنهم لا محالة الذين سيرثون الأرض ويحكموها بالإسلام يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ {النور/٥٥}

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾{البقرة/٤١٢}

التاريخ يقرأ لك المستقبل

معرفة تاريخ من اتبعوا الأنبياء ومن ساروا على دربهم، وكيف تعامل معهم أعداء الدعوات في كل زمان ومكان، يقول سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾{الفرقان/١٣}

فمثلا هؤلاء الفتية من أصحاب الكهف، كيف عاملهم الكافرين من قومهم؟ وكيف صبر هؤلاء؟ وما سبب ذكرهم في القرآن لنا على الرغم من أنهم ليسوا أنبياء؟ وكما جاء في كتاب اللهُ سبحانه وتعالى عن هذا الغلام الذي جاء ذكر قصته في سورة البروج، وماذا عن ثباته في الحق حتى حدث له ما حدث في سبيل دعوته حتى بلغها كاملة وآمن بها من آمن وكذب بها مَن كذب.

وعن معالم السابقين من الأنبياء، موسى مع فرعون، وإبراهيم مع قومه ومع طاغية زمانه النمرود، وعيسى مع بني إسرائيل، ويوسف وإخوته وقصته المعروفة، ونبينا محمد مع قومه، وهكذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم وكذلك من الصالحين كمؤمن آل ياسين، ومؤمن آل فرعون.... وغيرهم ممن ذكرهم القرآن وخلد ذكرهم من أنبياء وصالحين.

ولابد من كثرة القراءة لتاريخهم حتى يكون لنا بمثابة اضاءات في طريقنا ونحن نسير إلى اللهُ.

يُعين على فهم الواقع

لو بحثنا في القرآن الكريم عمن سبقونا من الأمم، وبخاصة الذين كذبوا رسلهم، نجد ما قالوه سابقاً هو نفس ما قاله كفار مكة لسيدنا محمدﷺ وهو أيضاً نفس ما يقال في كل زمان ومكان من هل الباطل لأهل الحق ولأهل الدعوات الصالحة المصلحة لذا نجد في القرآن دليل ذلك قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ {الذاريات٥٢-٥٣}

نعم تواصى أهل الباطل بينهم ثم وصى بعضهم بعضاً الواحد تلو الآخر حتى أخر الزمان على وقوفهم ضد الحق وأهله والداعين له! فالتاريخ يعيد نفسه، وما أشبه الليلة بالبارحة، لهذه الآية التي تبين لنا ما سبق أنه هو نفس ما هو الآن مع اختلاف يسير في الأسماء والأماكن قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾{البقرة/١١٨}.

فهذا تاريخ يعيده القرآن لنا، حتى نفهم الواقع فهماً صحيحاً لذا يقول لنا القرآن: «كذلك قال الذين من قبلهم تشابهت قلوبهم... ثم يعقب محذراً ومنبهاً لنا... قد بينا الآيات لقوم

يوقنون.. « فهلاّ فهماً صحيحاً لتاريخنا، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ {النازعات/٢٦}

إن التاريخ يعيد نفسه وإن الأحداث تتكرر ودارس التاريخ بعمق لا يخدع بسهولة مهما كانت المؤامرات، وقارئ التاريخ بعمق يعرف كيف وأين ومتى يضع قدمه، التاريخ كالشمس التي تضئ للناس، فكما قال القائل لا جديد على الأرض، فما حدث قديماً هو بعينه ما يحدث الآن وما سيحدث لاحقاً، وإنما تتغير الأسماء والأماكن، لذلك كان النبي يربي أصحابه على هذا الأمر ومن قبله رباه ﷲ على ذلك فالله يقول لنبيه آمراً إياه ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ {الأعراف/١٧٦}

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ {هود/٤٩}

ويعقب ﷲ تعالى في أخر سورة يوسف بعد أن قص القصة بتمامها على النبي وصحابته وأمته أمره تلميحياً بقصها فيقول جل في علاه في نهاية السورة مبينا أهمية قَصّ القصة « أو قراءة التاريخ» في الإسلام ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ {يوسف/١١١}

فبينت هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات، أن من فوائد القصص أو قراءة التاريخ عبرة لأولي العقول السليمة، لأن من يدرس التاريخ

يستفيد من أخطاء السابقين، فمن أخطأ في شيء فأنت قرأت عنه وعن خطئه ومن ثمّ فلن تقع فيه، وكيف تقع فيه والتاريخ يصدق بعضه بعضا، ويعضد بعضه بعضا ويُفَصّل الأشياء أمامك وكأنك تراها رأي عين، لهذا فدارسة التاريخ بالنسبة لنا كمسلمين يهدينا لأصوب الطرق وأفضلها وأقصرها.

التاريخ خميرة المستقبل، ونحن أيها الشباب، أمة لها تاريخ فريد، جدير بأن نقرأه ونفخر به، ونتخذ منه المُثُل العلا، ونتخذه منطلقاً للنهوض من كَبْوتنا، واسترداداً لمكانتنا، ولما أراد أعداء الإسلام، محو ذاكرة الأمة، وقطع صلتها بتاريخها المجيد واهتموا بهذه الدائرة اهتماماً كبيراً، واعتبروا التاريخ الإسلامي الرائع أحد «المنابع» التي يجب «تجفيفها»، والوقوف بحزم في طرقها ليُحولُوا بين المسلمين وبين أحد أهم مصادر شموخهم ونهضتهم»[1]

يقول المستشرق الألماني «شاتلي» وهو أحد الحانقين على الإسلام الكائدين له، والذين عرفوا أسباب عزة المسلمين فأراد أن يجعلها مسخاً مشوهاً يقول: «إذا أردتم أن تغزوا الإسلام، وتكسروا شوكته، وتقضوا على هذه العقيدة التي قضت على كل العقائد السابقة واللاحقة لها، والتي كانت السبب الأول والرئيسي لاعتزاز المسلمين وشموخهم، وسبب سيادتهم وغزوهم للعالم،.... فعليكم أن توجهوا جهودكم وليكن هدفكم فقط إلى

(١) انظر حُقْبة من التاريخ ، أ / عثمان الخميس طبعة دار الأيمان طبعة أولي سنة ١٩٩٩م ص ٥ بتصرف.

نفوس الشباب المسلم خاصة، والأمة الإسلامية عامة، وذلك بإماتة روح الاعتزاز بماضيهم وتاريخهم وقرآنهم وتحويلهم عن كل ذلك، بواسطة نشر ثقافتكم وتاريخكم، ونشر روح الإباحية، وتوفير عوامل الهدم المعنوي»[1]

أرأيتم أيها الشباب ما يحاك ضدكم حتى تنفصلوا عن سبب عزكم بعد كتاب اللَّهُ تعالى وسنة نبيه ﷺ وتاريخكم المجيد الذي عرف أعدائكم مدى تأثيره عليكم فقاموا بهدمه وتشويهه لكم، فلا شك لدينا عندما نطلب من الشباب أن يعالجوا هذا التباين بيننا وبين سلفنا الصالح بأن يقرأ التاريخ الإسلامي الصحيح ممن يُوثَق بهم وفيهم، ومن المأمونين عليه، يقول ابن سيرين: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»[2] فالتاريخ أمر مهم للدراسة والقراءة والتعمق فيه، إذ هو يشكل عماد الأمم، وهو يحدد لشبابنا منهجه في حاضره ومستقبله وما من أمة تقوم وتسود إلا إذا أحكمت صلتها بماضيها، واستمدت منه القوة لبناء حاضرها واستشراف مستقبلها، وأمة مثل أمة الإسلام أولى من غيرها بذلك، لما يحمل تاريخها من أمجاد وبطولات وانتصارات يصغر عنده تاريخ أي أمة من الأمم، وفي ظل الضعف الذي نحن فيه لابد لنا من العودة لتاريخ أمتنا المجيد المشرق، لكي يسهل علينا تأمل ذاتنا، والنظر حولنا، ونلمس الخُطى لمستقبلنا، وهذا

(١) انظر غزو العالم الإسلامي، للمستشرق شاتلي ص ٢٦٤ نقلًا عن حُقبة من التاريخ.

(٢) انظر مقدمة صحيح مسلم ج ١ ص ٢٣٠ طبعة أولي دار الحديث سنة ٢٠٠١م

لن يتم إلا برجوعنا وتدبرنا لتاريخنا الصحيح.
وأنا أؤكد على مقولة تاريخنا غير المشَوّه غير المزور لأن هناك تزوير في التاريخ، كتزوير تاريخ دولة الخلافة الإسلامية الراشدة؛الخلافة العثمانية أو دولة الأندلس الإسلامية، أو الدولة العباسية أو الدولة الأموية وغيرها كثير، وما رأينا تزويراً لهذا التاريخ الإسلامي المشّرف إلا لما تركناه خلفنا، حتى كنا ندرس ونحن في إحدى السنوات الأولى أن الدولة العثمانية هي دولة احتلال أما الحملة الفرنسية فقد كان لها مميزات حتى كان السؤال الأساسي ما هي أهم مميزات الحملة الفرنسية وما مساوئ الحكم العثماني؟ وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ثانيا: غياب التربية الصحيحة

إن من أهم أسباب تفوق سلفنا الصالح علينا، تنشئتهم تنشئة اسلامية حقيقية، وتربيتهم على الأخلاق القويمة بداية من الولادة، وحتى الكِبَر.
لذا تُعَدُّ مرحلة الطفولة وتليها مرحلة الشباب، من أهم المراحل في حياة بني الإنسان، لأنهما يشكلان حجر الأساس في بناء الأفراد الذين يُتوَقف عليهم مستقبل الأفراد ومصير الأمم، ومن تقوم على سواعدهم دَعائم الحضارات الإنسانية، فالطفل في هذه المرحلة يكون في أمس الحاجة إلى الرعاية والتربية والتوجيه أكثر،

حيث تتكون في مرحلة الطفولة البذور الأولى لشخصية الطفل، ومن ثمّ يكون بعدها شخصاً سوياً نافعا لنفسه وأمته، وإما غير ذلك.

والناظر في واقعنا الآن يجد اختلافا كبيراً بين ما ربّى النبي ﷺ أصحابه عليه وبين ما نرى عليه أبناءنا الآن، وبين المنهج القرآني الذي تربى عليه الجيل الأول، والذي مَلَكَ الدنيا، ومُكن له في الأرض، وبين المنهج الغربي والأفكار الغربية والشعارات الجوفاء التي تربى عليها أبنائنا الآن.

فترى أننا في هذا العصر نربي أبناءنا على مناهج علمانية، وأفكار إلحادية، والتي تغزو عالمنا العربي والإسلامي ليل نهار وبلا توقف ولا انقطاع، تارة من الشرق وتارة من الغرب، وفي الوقت نفسه نضرب بالمنهج الرباني الذي وُضِعَ لهداية الناس عرض الحائط ولا نأبه به ولا نلقي له بالاً، مع العلم بأن هذا المنهج هو مصدر عِزّنا وسر نهضتنا، ولكن الحال كما نرى من المسلمين الآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فما أشبهنا اليوم ونحن نريد أن نصلح من أنفسنا كمن يريد إصلاح جهاز معينا مثلا، ثم يفتح دليل الإصلاح الخاص بجهاز آخر ويقرأه فلا يصلحه، ثم يأتي بالدليل الخاص بإصلاح جهاز آخر فلا يصلحه، مع أنه لو وضع يده على دليل إصلاحه لأصلحه.

فهذا المثل ينطبق على أمتنا الإسلامية اليوم تتخبط على غير هُدىً فتتخذ أساليب وأنماطا في التربية، ما أنزل اللهُ بها من

سلطان، مع أنها لديها القرآن الكريم المنهج الرباني والذي لو وضعنا أيدينا عليه وتمسكنا به لسُدنا العالم وملكنا الدنيا ومَكن اللهُ لنا في الأرض.

ونذكر ما قاله الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ « نحن قوم أعزنا اللهُ بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا اللهُ « وبالفعل أذلنا اللهُ، وسلط علينا الأمم، وذلك عندما ابتعدنا عن منهجه، عندما هجرنا القرآن والعمل بما فيه وأعرضنا عن ذكره، فحدث ما لا يخفى على أحد ويراه الجميع. ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ {طه/١٢٤}

وإذا ما تعمقنا قليلاً فسنرى العجب العجاب، من يا ترى المنوط به تربية الشاب المسلم الذي يحمل هم أمته، ومن الذي يقوم برعايته وتربيته تربية صحيحة، المفروض أنها الأسرة في المقام الأول، ثم المؤسسات التربوية النظامية في المقام الثاني.. فأين الأسرة وما دورها؟ وأين مؤسسات الدولة وما عملها؟ فالأسرة اليوم من أب وأم، لا يشعرون بالمسئولية الملقاة على عواتقهم، وبالتالي يتركون لأبنائهم الحبل على الغارب، دون أدنى عناية لأخلاقهم، أو أقل توجيه لسلوكهم، وهذا هو أهم ما يهدم الشباب ويخرج لنا جيلا فاسداً، لا يعرف سوى التفاهة تحت أي مسمى والمجون واللهو.

وصدق الشاعر إذ يقول:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عوده أبوهُ
وما دان فتىً دين بحجا[1] ولكن يعوده التدين أقربوهُ

(١) حجا: عقل

إن غياب التربية الإسلامية الواعية، خطرٌ داهم وكارثةٌ محققة، فهي حجر الزاوية، والأساس لإفساد الشعوب المسلمة وإبعاد شباب الأمة عن ربهم ودينهم، عن قرآنهم ومنهجهم، فالآباء قد ألهتهم الدنيا بزخرفها عن تربية أبناءهم، أو النظر فيما ينفعهم في الدنيا والآخرة ولهثوا وراء جمع المال والانشغال به وأقول لأمثال هؤلاء ما الخير في جمع المال وإغداقه على الأبناء، في حين أن هؤلاء الأبناء لم يتربوا على القرآن، والإسلام روي عن النبي ﷺ قوله «ما نحل والدٌ ولده شيء خير من خُلُق حَسَن» وروى النسائي بإسناد صحيح عن عبد الله بن شدّاد رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بالناس إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد، فأطال السجود بين الناس حتى ظنوا أنّه قد حدث أمر فلما قضى صلاته، سألوه عن ذلك، فقال ﷺ (إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته). وقال ﷺ: (إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ، أم ضيع؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته) صححه الألباني. وقال عبد الله بن عمر: (أدب ابنك فإنك مسئول عنه، ماذا أدبته وماذا علمته؟ وهو مسئول عن برك وطواعيته لك).

والأم مدرسة أن أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق

ويقول غيره:

ليس اليتيم من أنتهي أبواهُ ... من ذُلّ الحياة وخلّفاه ذليلا
إن اليتيم من تَلْق له ... أُمًّا تَخَلّتْ أو أباً مشغولا

فانظروا لشباب الإسلام الأوائل أسامة بن زيد، وعلى بن أبي طالب، ومصعب بن عمير، والأرقم بن أبي الأرقم، ومحمد بن القاسم الأسدي، والشافعي، وصلاح الدين، قطز، وغيرهم من عظماء الإسلام، على أي شيئ تربوا؟ إنه الإسلام إنها التربية الإسلامية التي كانت موجودة عندهم وفُقدت عندنا، إنها التربية التي فَجَّرت هذه الطاقات المأهولة، ووجهت هذه الإمكانيات العظيمة إلى خدمة الإسلام، ولقد ظلت أمتنا الإسلامية على هذا الأمر ولقرون متتالية، وستظل طالما نحن متمسكين بديننا وبتربيتنا الصحيحة لأبنائنا، أما في عصرنا الذي نعيشه الآن فقد رأينا تغيراً في التربية إلا ما رحم ربي... لذلك فتقدت الأمة أغلى ما عندها، وضيعت منها سر نجاحها، وضلت طريقها إلى وعاشت معيشة الضنك والبؤس، وصدق فيها قول اللَّهُ تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾{طه/٤٢١} وها نحن نعيشها هذه الفترة من الضنك والبؤس، يقول الأستاذ يوسف العظم: إن وزير الحرب الصهيوني «موشي ديان» لقي في إحدى جولاته، شابا مؤمنا في مجموعة من الشباب، في حي من أحياء قرية عربية باسلة، فصافحهم بخبثٍ يهودي ماكر، غير أن الشاب المؤمن لم يُسلم عليه- والآن يسلمون عليهم بل ويقبلون أيديهم- المهم قال له الشاب «كيف أُسَلم عليكم وأنتم

أعداء أمتنا، وتحتلون أرضنا، وتسلبون حريتنا، ولكن يوم الخلاص منكم لابد أنه آت وقريب بإذن اللّٰه وستتحقق نبوءة نبينا حين قال: لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله)، وزاد مسلم: (إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود)؛ متفق عليه.

فابتسم «ديان» الماكر وقال حقا سيأتي يوم نُخرج فيه من هذه الأرض ونُهزم أمامكم، وهذه نبوءة نجد لها أصلا في كتبنا... ولكن متى؟ ثم استطرد قائلا: «... إذا قام فيكم شعبا يعتز بتراثه، ويحترم دينه، ويقّدر قيمة حضارته الإسلامية، ويتربى على ذلك، وإذا قام فينا شعب يرفض تراثه، ويتنكر لتاريخه، عندها تقوم لكم قائمة وتزول إسرائيل..»[1]

حقا إن التربية الإسلامية الصحيحة الواعية، تكون سببا في الانتصار على الأعداء، وغيابها سبباً في الهزيمة، وهذه شهادة عدو، صدق وهو كذوب.

فمن المستحيل أن يفهم الإنسان دينه وهو يعيش منفردا بعيدا عن الناس بل لابد من التربية الجماعية لتقويم الانحراف، وانتقال الصفات بالمعايشة والتواصي بالحق والصبر، وتفعيل هذه المحاضن التربوية خاصة في المساجد، وإنشاء محاضن تربوية في البيوت، والبداية تكون من الأم والأب والأخ والأخت ثم الجيران ثم

(١) انظر هويتنا أو الهاوية للمقدم ص ٨٩ بتصرف دار الصفوة طبعة أولي سنة ٢٠٠٢.

الأصدقاء والأقارب، حتى يكون المسلم (قرآناً يمشي يبن الناس) وهذا يعتبر من أهم واجبات العصر، لنصل إلى ما نريد من أبنائنا وما نطمح إليه من تربيتهم، من هنا يتأكد لنا أن التربية هي عملية مستمرة، لا يكفي فيها توجيه عابر فقط، بل يحتاج الأمر إلى متابعة وتوجيه مستمر، فالتخلُّق بخلق معين يحتاج إلى جهد طويل، وهذا يستلزم استمرارية التوجيه ودورية الأعمال التربوية»[1] فقد تربى شباب السلف على هذا الأمر الذي يبين شمولية الدين الإسلامي لجميع مناحي الحياة «ولقد جاء الإسلام دينا شاملا للزمان والمكان ولجميع المبادئ والوسائل، فهو الدين الذي يصلح البشرية جميعا إلى يوم الدين، وتشتمل هذه المبادئ من أمور العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات، وصلة الإنسان بربه أو بنفسه أو بغيره من المسلمين وغيرهم»[2].

هكذا تربي الصحابة رضوان اللهﷺ عليهم، تربوا على شمولية الإسلام وأنه منهج حياة، ليس محصورا في عبادات وفقط، وإنما هو شامل لجميع مناحي الحياة، كما قيل عنه «إن رسالة الإسلام هي الرسالة التي امتدت طولا حتى شملت أباد الزمان، ولقد امتدت عرضا حتى شملت جميع مناحي الحياة...»

الشباب والانتماء

لقد زُرع في الشباب الآن الانتماء إلى أشياء كثيرة ما أنزل اللهﷺ

(١) انظر صور من القرآن ص١٧٨ د/ علاء الدين محرم.

(٢) انظر الحج دروس وعبر د/ أسامة جادو ص٢.

بها من سلطان، وما عادوا يشعرون بالانتماء الحقيقي إلى أمتهم الإسلامية ولا يعتزون بها، فهؤلاء ينتمون إلى قومية عربية تفسد عليهم صلتهم بالمسلمين شرقا وغربا من غير العرب، وغيرهم ينتمون إلى قومية فارسية، أو فرعونية، أو عراقية، أو كردية، وعُزلت الأمة تماما عن دينها، وتربت على ذلك، حتى كان جُلّ فخار بعض الشباب، انتمائه لمجموعة من الملحدين أو الكفار وكل همّهِ تجسيد شخصياتهم، لأنه قرأ عنهم، وتربى على منهجهم، فأحبهم ومن ثم انتمى إليهم، ثم فُرِّغت بالتالي مناهج التعليم في جميع المراحل من معنى الولاء لله تعالى، فهذا يحب مغنٍ ملحد ساقط كل همه أن يفعل كل ما يفعله هذا الساقط من حلقٍ لشعره، أو كيف يلبس ما يلبسه، حتى ولو كلفه هذا مخالفته لمجتمعه، أو مخالفته لأهله وعشيرته وكيف يتكلم مثل كلامه، كل همه أن يأتي بنبراته على أغانيه يتربى على شرائطه... الخ، هذا كله يفعله شباب من أمة الإسلام، وصدق من قال للمسلمين جميعا «إياكم أن تربوا أولادكم على موائد اللئام، على التلفاز وموبقاته، أو الفضائيات وميوعتها و الشبكة العنكبوتية وضلالاتها وغيرها...» مع العلم بأن الإسلام ليس ضدها بالكلية ولكن ضد ما فيها من شر وغثاء، وإن كان فيها الخير موجود لمن يبحث عنه، ولا يمانع أحد مثل القنوات الفضائية الإسلامية الصحيحة في عقيدتها ومنهجها وعرضها للواقع، وقد كثرت الآن ولله الحمد والمنّة.

هذا وقد فُرّغت المناهج التعليمية وفي جميع مراحلها من معنى الولاء لله، أو الاعتزاز بالدين، والفخار بأركانه، والفرح برموزه وقياداته العظام...، فنُزِعت آيات الجهاد نزعاً، وحطمت المعاني النبيلة عند الشباب تحطيماً، انتقلت عدوى الفحشاء والاستهانة بأمور الدين مأموراتٍ كانت أو منهيات، عند الشباب المسلم، وغابت التربية، فتجد بعض أصحاب الأقلام المسمومة يتنافسون في إصدار كتب الجنس والإغراء للشباب تحت اسم الأدب والفن، وعَمّتْ البلوى بالصور العارية بالصحف والمجلات، وانتشر الغناء الفاحش بما يحمله من ألفاظ مكشوفة فاحشة تهتك أستار الحياء، وتدعو إلى الإثم، كما تجد هذا وذاك يجتمع في أفلام ما يسمى بدور السينما والتي تحطم معنويات الشباب بدعوتها الصريحة للعنف والجريمة والجنس..» [1]

لكن من يبحث عن الخير سيجد فيها من الخير الكثير، وفيها ما ينفع أمة الإسلام وشبابها، لكنها لا تربي جيلا نحتاج إليه لأنهم وباسم الفن يحاولون دائماً أن يُضيّعوا شبابنا بتزييف القدوات، وقاموا بالتشنيع في مسلسلاتهم الساقطة، وأفلامهم الماجنة على كل ما هو إسلامي، حتى أقنعوا الشباب أن هذا هو التقدّم والتحضُّر، وهذه هي التربية الصحيحة.

لذلك فَسَد شبابهم، أما نحن فقد أفْسَد الكثير من شبابنا غياب

(١) انظر المخاطر التي تواجه الشباب المسلم دكتور مصطفي محمد حلمي صـ ٤٣ بتصرف طـ أولي ٢٠٠٥ دار بن الجوزي.

التربية الإسلامية الصحيحة والواعية، والتي أولاها الإسلام عناية فائقة وأهتم بها أيّما اهتمام، وها هو الأستاذ/ محمد أحمد الراشد، يلمح عن الخطر الذي وقع فيه الشباب المسلم، في عصر انحطاط الهمم، وكان سبباً في التباين بين شبابنا الآن وشباب من سبقونا، فيقول: «إن محنة المسلمين اليوم لا تقتصر على تسلط أئمة الضلالة فحسب، بل تعدت ذلك إلى تربية سَخَّرت المناهج الدراسية، وكراسي الجامعات والصحف والإذاعات كلها لمسخ الأفكار والقيم عند الشباب...، وأن عُصاة المسلمين اليوم هم ضحية تربيةٍ أخلدتهم إلى الأرض، وأنها خطة الفسوق ابتداءً، لتستخف بهم الطواغيت انتهاءً، وأنها خطة قديمة يأخذها الطاغوت اللاحق عن الطاغوت السابق»[1] حتى تصل إلى أصولها الأولي، إلى فرعون الأول وفراعنة العصور، وذلك على حد قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾{الزخرف/٥٤} وبذلك وصل الأعداء إلى قناعة تامة بأن التربية هي الأساس الذي لو نُقض ضاع الشباب، فأدركوا بذلك ما أدركه فرعون فتواصوا بالإفساد وأخذوا على عاتقهم أن يحولوا المجتمعات إلى شباب غارق في وحل الجنس والفاحشة والفجور، حتى لا يفيق بعد فيستمع إلى هُدىً أو يَفيئ إلى دين»[2]

---

(١) انظر علو الهمة _ محمد إسماعيل المقدم صـ ٣٢٨ بتصرف واختصار دار بن الجوزي طـ أول ٢٠٠٥م.

(٢) انظر وحي القلم للرافعي ج٢ ص ٢٥٨

وصارت سياساتهم تربية الشباب على الفجور والرذائل، ومحاربة الفضائل حرب لا هوادة فيها، فكان من سياساتهم «سياسة محاربة المساجد بالمراقص، ومحاربة الزوجات بالمومسات، ومحاربة العقائد بحرية الفكر (أو حرية الكفر)، ومحاربة القوة بفنون اللذة، فتحوّل شباب الأمة بهذه التربية الممسوخة المشوهة الغير إسلامية، تحول الشباب من صقر[1] إلى طائر وديع أليف لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلاّ ما أشرب من هواه وهوى أعداء الإسلام، إنه التربية والترويض، فاستنوق الجمل، وتخنث الشاب، كل هذا من غياب التربية الصحيحة الصالحة، فكل ذُل يصيب الإنسان من عدوه يناله من ظاهره، فقريبٌ شفاؤه، ويسيرٌ إزالته، فإذا نبع الذل من النفس، وانبثق من القلب فهذا هو الداء العضال والموت الخفي، لذلك عَمَد الطغاة المستبدون إلى أن يَسْقُوا الشباب المسلم الذُّل، بالتعليم الذليل، والتأديب المهِين، والتربية الفاسدة، وتنشئة الناشئة عليه لكن بوسائل شتى ليُميتوا الهمة ويقتلوا الغيرة ويحمدوا الحمية والعصبية ويصير الشباب المسلم تحت تأثير هذه التربية من رجال أقوياء أمرهم بأيديهم، إلى أشباه رجال لا يسمعون ولا يعقلون، أجسام البغال وأحلام العصافير، وأنتجت هذه التربية ظبياً جفولاً، بعد أن كان أسد هصوراً، لم يَعُد يقتحم، واستبدال العزم بالتّفلُّت، والمسارعة إلى الهرب بدل حُب الإقدام، إنهم هذا

(١) علو الهمة للمقدم ص ٣٢٩ بتصرف.

الجيل من الشباب من أبناء المسلمين، شبلُ أسد تحول إلى ظبي وديع»[1] هذه التربية التي لم يتربى عليها الأولون من شباب الإسلام والتي تربى عليها شبابنا الآن فالمناهج التربوية والتي ارتضت العلمانية ديناً، فراحت تسمم آبار المعرفة التي يستقي منها شباب المسلمين، لتخرج أجيالا مقطوعة الصلة بالله، والصلة بالسلف الصالح الذين سبقونا على الإيمان، تبتغي العزة في التمسح على أعتاب الغرب وتأنف الانتساب إلى الإسلام، فلا هي وصلت لما وصل إليه الغرب ولا بقيت على دينها وعقيدتها التي هي سر نهضتها ومبلغ عزها.

والمهم والذي يجب علينا أن نعرفه ونعمل عليه، هو أن التربية الإسلامية الواعية ليست هيئة معينة من الهيئات، ولا مؤسسة من المؤسسات، أو تختص بها جهة دون جهة، إنما هي مهمة أمة بأكملها هي مهمة الحاكم والمحكوم، الشعب والمجتمع، الأسرة والمدرسة، الكبير والصغير، الذكر والأنثى، العالم وطالب العلم، الداعية والمدعو، بمعنى حديث عبد الله بن عمر رضي اللهُ عنهما المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: (كلكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته، فَالأمير الذي على الناس راعٍ، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ علَى أهلِ بيته، وهو مسئولٌ عنهم، والمرأة راعية علَى بيت بعلها وولده، وهي مسئولَةٌ عنهم، والعبد راعٍ على مال سيده

(١) انظر المنطلق للراشد صـ ٥٣ بتصرف _ علو الهمة للمقدم صـ ٣٣١ بتصرف مرجع سابق.

وهو مسئولٌ عنه، ألا فَكلكم راعٍ، وكلكم مسئُولٌ عن رعيته).
هي مهمة كل من كان في قلبه إخلاص لله، وكل من كان في قلبه حمية لنهضة هذه الأمة، ورغبة صادقة في رفعتها وعزتها، فعلى كل أب أو أم أو داعية أو شيخ أو أستاذ، أن يقوم بدوره ويبذل كل ما في استطاعته لتربية من تحت يده التربية الصحيحة «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته....»

متى تبدأ التربية؟

الحقيقة التي لا مراء فيها أن التربية الإسلامية المطلوبة لا تبدأ من سن معينة بل بدايتها الحقيقية قبل الزواج أصلاً، تخيروا لنطفكم..، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺأنه قال: (تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)

وعنه قَال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: (إذا خطبَ إليكمْ مَن ترضون دينه وخلُقه فَزوجوهُ، إلَّا تفعلُوا تكن فتنَة في الأرض، وفسادٌ عريض) حسنه الألباني.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾{الروم/٢١}

وعن عَبدِ اللَّهِ بنِ عَمرو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعِ الدنيا المرأةُ الصالحةُ) صحيح مسلم. «ما أعطى إنسان بعد تقوى الله خير له من زوجة صالحة»

(قلب شاكر، ولسان ذاكر، وزوجة صالحة تعينك على أمر دنياك ودينك، خير ما أكتنز الناس) صحيح الجامع.

ثم يتخير أحسن الأسماء له وهذا عمر لما شكا إليه أحد الناس عقوق ولده له فلما سأل الولد عن السبب قال لقد سماني جعران،

ولم يختر لي أمي، ولم يعلمني شيئا من القرآن ولا الإسلام، فرد عليه عمر: أذهب فقد عققت ابنك قبل أن يعقك..

فالمدرس في مدرسته، والشيخ في مسجده، والمربي في بيته، والداعية في كل مكان، لا حجة لهم في أن المناهج مُفرغة أو أنها لا فائدة منها، فما يبنونه في عام يهدمه الآخرون في يوم، كل هذا لا يصح أن يقوله مسلم، فاليأس ليس من صفات المؤمنين.

أقول لا عذر لكم عند اللهﷻ، فالرسول بُعث بين أظهر الكافرين، وربّي من بينهم أفضل جيل عرفته البشرية..، أصبحوا بعد ذلك كل همهم نصرة الإسلام، وسؤالهم كيف ننصر الإسلام؟ وكل ما يدور في أذهانهم أهذا يرضي ربنا أم لا؟

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تربيات

أيها الشباب أنتم عما قليل ستكونون آباء، فحتى لا تقولوا قد عقنا أبنائنا ويقول لك عمر ﷺ «أذهب فقد عققت ابنك قبل أن يعقك..».

فارق كبير أيها الوالد الكريم، بين أن تموت ويكتب على قبرك هذا والد صلاح الدين، أو والد سيف الدين قطز، أو والد فلان الذي فعل كذا وكذا للأمة، ولا ينقطع عملك حتى يوم القيامة.. وبين أن يقال هذا قبر إنسان عادى ليس له أثر بعد مماته)[1]

ألم يقل اللَّهُ تعالى ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ {الكهف/٨٢}

فهيا بنا أيها المسلمون نبادر بتربية أبنائنا تربية صالحة قبل فوات الألوان «بادروا بالأعمال الصالحة، ستكون فتناً كقطع الليل المظلم....» رواه مسلم. ولا يشغلنا شاغل عن حسن تربية أبنائنا.

أيها المربون الفضلاء وأيتها الأخوات الفُضليات، يا من ترجون ألاّ

---

(١) انظر كيف تكون أبا ناجحا صـ ٥ أ/ عبد الله محمد عبد المعطى دار التوزيع ط أولي ٢٠٠٣ .

ينقطع عملكم بموتكم، يا من تريدون صدقة جارية تجري عليكم بعد موتكم، عليكم بتربية أبنائكم أومَن تستطيعون تربيتهم من شباب الأمة، لا تيأسوا من التغيير فهو سهل ميسور لكن يحتاج إلى صبر وجهاد ومجاهدة، لأن تغير النفوس شرط لأي تغيير تستهدفه الأمم. ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ {الرعد/١١}

وذلك التغيير الحادث داخل النفس لا يتم إلا من خلال جهد تربوي متكامل ومتواصل بتربية صحيحة، وبالتربية والتركيز يكون الرجل الواحد بأمة، وبالتربية يتفاضل الرجال الذين تقوم على أكتافهم الدعوات وتنهض بهم الأمم.

وقفة مع النفس أيها الآباء والأبناء المسلمون حتى تكونوا خير أمة أخرجت للناس، فلقد أودع الله سبحانه وتعالى في قلب الأبوين عاطفة فياضة نحو الأبناء، وهذا إنما ليُساقا سوقاً نحو تربيتهم ورعايتهم والاهتمام بشئونهم ومصالحهم، وانظروا إخواني إلى القرآن الكريم إذ يبين هذه العاطفة فيقول سبحانه: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾{الكهف/٤٦}. روى البخاري عن أنس بن مالك: قال جاءت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها فأعطتها عائشة ثلاث تمرات، فأعطت هذه المرأة كل صبي من

أولادها تمرة وأمسكت هي تمرة بيدها لنفسها فأكل الصبيَّان التمرتين ثم نظرا إلى أمهما، فعمدت الأم إلى التمرة التي كانت بيدها وشقتها نصفين وأعطت كل صبي منهما نصفها فجاء النبي ﷺ فأخبرته عائشة فقال النبي وما يعجبك من ذلك ؟ لقد رحمها الله برحمتها صَبِيَّيهَا» وهناك على النقيض من هذه الصورة المشرقة، صورة سيئة، روى البخاري من حديث أبي هريرة قال قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالس فقال الأقرع: أن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً فنظر النبي إليه ثم قال « من لا يرحم لا يُرحم» وفي رواية « وما أملك إذ نزع الله الرحمة من قلبك ولا تُنزعُ الرحمة إلاّ من شقي» ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ {يوسف/٢١}

ثالثاً: القدوة

الحق إخواني في الله أن للقدوة تأثير فعال في حياة الأفراد وتربية الشباب والمجتمعات، فالشباب في هذه المرحلة الحرجة من عمرهم، يمرون بمشكلات عديدة ومتنوعة، ولا بد للشاب أن يتخذ له قدوة من طفولته، مهما تكون هذه القدوة سواء كانت صالحة

مُمَثَلة في الأب والأم لأبنائهما وغيرهما من الصالحين من علماء ودعاة سابقين أو معاصرين، أو غير صالحة كأحد الشخصيات المشهورة المشبوهة كالمغنين أو الفنانين.

إن غياب القدوة الصالحة خَطْبٌ من أفظع الخُطوب، ومشكلة من أكبر المشكلات، وتهديد وشيك وصافرة إنذار تنذر الأفراد والأسر والمجتمعات بخطر داهم، وطامة كبرى، إذا لم تُتدارك في أقرب وقت ممكن، ففي غياب القدوة يتخبط الشباب على غير هُدىً، وفي غياب القدوة تجد شبابا بلا أهداف، بلا غايات وبلا طموحات، حتى أنك إذا سألت أحدهم ما هدفك في الحياة؟ لكان هذا السؤال محرجاً مخجلاً له، لماذا؟ لأنه لم يُعدّ له جوابا في يوم من الأيام.

في غياب القدوة يعيش الشباب في قلق وضياع وفراغ، والفراغ سُمٌّ قاتل، فلا يكاد الشاب يجد ما يقوم به، أو يزاوله من الأعمال، فيقعد مع القاعدين، وتزداد المأساة يوماً بعد يوم حتى تضيع هذه الثروة الهائلة، شباب الأمة وهذه الطاقة الكبيرة والتي هي من أثمن الأشياء وأغلاها.

فالقدوة الصالحة هي التي ترسُم للشباب –عملياً – الطريق الذي يسيرون عليه، والذي إن اتبعوه وساروا عليه بلا زيغ عنه فأنه سَيُوصِلُهم إلى سعادة الدنيا والآخرة وإلى رضا رب العالمين.. وإلى نفع أمتهم والتي ضاعت بسبب ضياع شبابها، فالقدوة هي

السراج المنير للشباب، الذي يبدد نوره ظلمات الكفر والضلال والظلم والفساد.

رَوَى الْحَافِظُ بن كثير: أن عُقْبَةَ بْنَ أَبِي سفيان لَمَّا دَفَعَ وَلَدَهُ إلى الْمُؤَدِّبِ، قَالَ لَهُ: (لِيَكُنْ أولُ مَا تبْدَأُ بِهِ مِنْ إِصْلَاحِ بُنَيَّ إِصْلَاحَ نَفْسِكَ فَإن أَعْيُنَهُمْ مَعْقُودَةٌ بِكَ فَالْحَسَنُ عِنْدَهُمْ مَا اسْتَحْسَنْتَ، وَالْقَبِيحُ عِنْدَهُمْ مَا اسْتَقْبَحْتَ).

وَقَالَ عَبْد الْمَلِكِ بْن مروان يَنْصَحُ مؤَدِّبَ وَلَدِهِ: (عَلِّمْهُمُ الصِّدْقَ كَمَا تُعَلِّمُهُمُ القرآن وَاحْمِلْهُمْ على الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَجَالِسْ بِهِمْ أَشْرَافَ الرِّجَالِ وَأَهْلَ الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَجَنِّبْهُمُ السِّفْلَةَ وَالسُوقة فَإِنهُمْ أَسْوَأُ النَّاسِ أَدَبًا. وَوَقِّرْهُمْ مِنَ الْعلانية وَأَتبْهُمْ فِي السِّرِّ، وَاضْرِبْهُمْ على الْكَذِبِ إن الْكَذِبَ يَدْعُو إلى الْفُجُورِ، وَأن الْفُجُورَ يَدْعُو إلى النَّارِ).

فما وصل أصحاب رسول اللهﷺ إلى ما وصلوا إليه إلا بفضل اللهﷻ أولاً ثم لأنهم وضعوا رسول اللهﷺ ﴿نُصْبَ أعينهم واتخذوه قدوتهم لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ {الأحزاب/٢١}

ومن قبله سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾{الممتحنة/٤} فالآيات تدل دلالة واضحة على أن اللهﷻ ارتضى لنا أن نتخذ خليل الرحمن قدوة

لنا، ومن بعده خاتم النبيين محمد ﷺ فالقدوة الصالحة هي التي تصنع العجائب الباهرة.

لكن من المسئول عن واقع شبابنا اليوم؟ ومن المسئول عما هم فيه من انحلال وخلاعة ومجون وانشغال بسفاسف الأمور وتوافهها؟ في الواقع لا يمكن أن نُحمّل الشباب كل تبعات ما هم فيه الآن من ضياع لأن في ذلك ظلماً لهم وإجحافاً بحقهم، لكن نقول من يتحمل عاقبة هذا الواقع الأليم هم الشباب في المقام الأول، ثم من اشتركوا في تمييع الشباب وتغريبهم وإبعادهم عن قيمهم، وأخلاقهم الإسلامية النبيلة السامية، ومِن هؤلاء، أعداء الأمة من الشيوعية الملحدة، والصهيونية الكاذبة الخادعة الآثمة، حتى تمسك العرب بعروبتهم أكثر من إسلامهم، كما حلت الأنظمة العلمانية اللادينية محل النظام الإسلامي، والمناهج الوضعية مكان المنهج الرباني، وهكذا قطعونا عن ركب الإنسانية وتركونا في مخلّفات الأمم وفي معامي التيه، ليتولى الملاحدة وأهل الضلال مِمَن يُسَمَّوْن بأسماء إسلامية من مثقفين وغيرهم ممن يميلون ناحية الغرب الكافر تارة وناحية الشرق الملحد تارة أخرى هؤلاء هم مَن تولى قيادة المسلمين.

وهنا نؤكد أن كل مخططات ومؤامرات أعداء الإسلام، لا تفُتّ في عضد المسلمين، ولا توهنهم إلا إذا ضعف المسلمون من داخلهم وابتغوا العزة في غير دينهم، ولنعلم تمام العلم أن الهدف من وراء

هذه المؤامرات التي يخططها الأعداء في جنح الظلام، إنما هي لطمس كل المعالم الإسلامية لتمييع الشباب، وهدم الإسلام، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾{التوبة/٣٢}

وما أصدق قول الشاعر:(١)

مازال فينا ألوف من أبي لهبٍ يؤذون أهل الهُدى بَغيا ونكرانا
مازال لابن سلول فينا شيعةٌ كُثُرٌ أضحى النفاق لهم وَسْمًا وعنوانا
وتنشر الزور أحزاب مضللة تغلي صدورهموا حقداً وكفرانا
ولم نَلُمّهم فهذا كله حسد والغِلّ يوقد في الأحشاء نيرانا

هذه الحرب الشعواء التي لا هوادة فيها على كل ما هو إسلامي وطمس معالمه، كل هذا لما في قلوبهم من حسد وحقد، قال تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ {البقرة/١٠٩}، ﴿وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾{النساء/٨٩} وهذا هو دأب أهل الباطل في كل زمان ومكان يعرفون الحق ثم يحيدون عنه ويعرفون الباطل ثم يتبعونه، وليس هذا وفقط بل يعملون ليل نهار حتى يصرفوا المسلمين عن هذا الحق حسداً وحقداً عليهم بدلاً من

(١) شعر د/يوسف القرضاوي ديوان نفحات ولفحات .

أن يتبعوهم والعياذ بالله يقول ﷻ عنهم. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾{النحل/٨٣} ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾{الأعراف/١٤٦} وما أشبه الليلة بالبارحة، فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

إن الصراع بين الحق والباطل والخير والشر ليس وليد يومنا هذا بل هو قديم قِدَم الإنسانية، وفي الوقت نفسه مستمر إلى أن يرث ﷻ الأرض ومن عليها وقد رأينا هذا الصراع في صور عديدة أشكال شتى والهدف واحد وهو القضاء على الإسلام أو استئصاله تماما بحيث لا تقوم له قائمة.

رأينا هذا الصراع في صورٍ شتى منها تكالب أهل الأرض جميعا مهما اختلفت عقائدهم وتوجهاتهم على أمة الإسلام، في صورة مؤامرات ومخططات فكرية، سياسية، عسكرية، أخلاقية، تضرب أول ما تضرب الشباب، لأنهم عماد أي أمة، وسِر قوتها ومبعث عزتها وكرامتها وحاملي لوائها إلى النصر والتمكين.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾{النور/٥٥}

القدوة وأثرها

وينشأ ناشئي الفتيان فينا على ما كان عوده أبوهُ
وما دان فتىً دين بحجىً ولكن يعوده التدين أقربوهُ

إن القدوة الصالحة تصنع المعجزات، لذلك عمد أعداء الإسلام في الخارج، وأذنابهم في الداخل، إلى أن تتخذ أمة الإسلام مناهج التربية والتعليم منها، فتقوم بتطبيقها على أبنائها وأجيالها، وتكون قدوتهم هذه المناهج الوافدة ومن فيها، فتشوّه بذلك فِكْرِهم وتمسخ عقولَهم وتخرج بهم إلى الحياة وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج الوافدة أولًا...، ثم يلتبس الأمر عليهم بعد ذلك، فيحسبون أنهم على الصواب، ثم ما يلبسون أن يجادلوا عما حسبوه صوابًا ثم يدعون إليه [1] وبهذا تصبح قدوتهم كلهم إما الغرب الكافر، أو الشرق الملحد.

إن المِثَل الأعلى، والقُدوة الصالحة، تمد الإنسان بالأهداف التي يعيش من أجلها، ويعمل لتحقيقها، وهو أيضا يمد الشباب بالرسالة التي تمنح وجودها المبرور والمكانة الرفيعة، وهو يعطي الحياة معناها وقيمتها، ونجد الشباب دائما، وفي الأعم الأغلب يبادرون إلى سلوك طريق الهداية متى وجدوا القدوة الصالحة، وقد أثبتت التجارب أن القدوة تُعد من أنجح الوسائل المؤثرة في إعداد الشباب الصالح، وتكوينه خُلُقيا ونفسيا واجتماعيا، وذلك لأن

(١) انظر الغزو الفكري صـ ١٣ يتصرف د/ علي عبد الحليم محمود ط رابعة ١٩٩١ دار المنار الحديثة.

الشباب لا بد أن يضع نُصْب عينيه مثالا يَحتذي به ويُقلده سلوكيا ويُحاكيه أخلاقيا [1]

إذن فمن السهل على أي مُرَبِّي أن يلقن من يربيه منهجا من مناهج التربية، ولكن من الصعوبة بمكان أن يستجيب ذلك المرَبَّي لهذا المنهج الذي يعلمه إياه إن كان المرَبِّي لا يعمل بما يقول، ليس هو قدوة للمُرَبَّي وهذا ما نلامسه في واقعنا العملي، لذلك جعل اللَّهُ سبحانه وتعالى للقدوة أهمية كبيرة، فأمر سبحانه بالاقتداء بالصالحين من الرسل، فأمر اللَّهُ رسوله بالاقتداء بالرسل الذين سبقوه، فقال سبحانه: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ {الأنعام/٩٠} ثم أمر اللَّهُ المسلمين جميعا بأن يقتدوا بالرسول ثم يبين اللَّهُ تعالى أيضا للمسلمين وجوب اقتدائهم بالصالحين من قبلهم فقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ {الممتحنة/٦} فها هي الآية الكريمة توضح أن الاقتداء بالصالحين واجب، حيث قال اللَّهُ في نهاية الآية قال ومن يتولّ فإن اللَّهُ غني عنه وعمن يقتدي به من غير الصالحين، ثم يبين النبي وجوب الاقتداء، كما في حديث ابنِ مسْعود، قال: قَال رسول اللَّهِ ﷺ: (اقتدُوا بِاللَّذَينِ مِن بعدِي أَبي بكرٍ وعمر، واهتدُوا بِهدْيِ عمَّار، وتمسَّكُوا بِعهد ابنِ مسعود)، صححه الألباني وفي حديث آخر يقول آمرًا ومؤكدًا أيضا، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن رسول اللَّهُ ﷺ إنه قال: (..إنه مَن يَعِشْ منكُم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنَّتِي وسنَةِ الخلفَاءِ المهديّينَ

(١) انظر الإسلام والشباب مرجع سابق صـ يتصرف.

الراشِدينَ تَمسَّكُوا بها عضوا عليها بالنواجذ..) صححه الألباني.
وكأن النبي ﷺ يعيش بيننا الآن، لذلك وجَّهنا ﷺ إلى الاقتداء بمن نثق بهم وفي دينهم.
أخي أَلَكَ قدوة الآن؟ ومَن هو؟ الواقع والله يا إخواني أن الشباب في أمة الإسلام يعانون من أمر خطير وخطير جدا وهو افتقاد القدوة الصالحة، فكما قيل (فعل رَجُل في ألف رَجُل خير من قول ألف رَجُل في رَجُل) فكيف تكون هناك تربية بغير قدوة؟ لقد افتقد المسلم القدوة الصالحة في كثير من الأحيان. ومن ثم كان قدوته فنّانا ماجنا أقرب إلى النساء منه إلى الرجال؟ أو مُمَثِّلاً يحارب الإسلام في مُسلسلاته وأفلامه، وهكذا مما نراه في بلاد المسلمين... أو قدوته لاعب كرة أنفق زهرة شبابه في اللعب، وقد يكون هذا اللاعب غير مسلم أصلا، حتى يصبح هَمّ الشاب وحلم حياته وهدف عمره، أن يصبح لاعبا مثله، أو حتى يحصل على توقيع من هذا اللاعب الذي يعتبره قدوته، و همه الأكبر أن يلبس مثل ملبسه، ويحلق شعره مثله، ويتكلم بصوته، ويمشي مشيته وهكذا..، تقليد أعمى، ووضع مريب، ومصيبة كبيرة، يلهثون وراء كل جديد حتى ولو على حساب دينهم وأخلاقهم ومجتمعهم[1]
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ {الأحزاب/١٢}

(١) انظر كلمة إلى شباب لأمة يتصرف واختصار صـ ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

الإعلام وآثاره

إخواني في الله إذا كانت التربية الصحيحة هي أحد جناحين مهمين لتغيير فكر الإنسان، فالإعلام هو الجناح الآخر، والأداة الفاعلة في هذا الفكر، فمن هنا نجد أنه قد حرص أعداء الأمة الإسلامية أشد الحرص على الاستفادة من وسائل الإعلام، وذلك لبثّ غزوهم الثقافي الخبيث وفكرهم الإلحادي العَفِن، وذلك لعلمهم الأكيد بما في هذه الوسائل من قوة تأثير على الرأي العام عامة والشباب خاصة [1]

ليس المقصود الإعلام الغربي أو الشرقي أو المعادي فقط، فإن كانوا هم يريدون هدم قيمنا الإسلامية، فهم أعداؤنا؛ لكن لماذا نحن نُعِينهم على هذا ونفعل ما يريدون فِعْلهُ وأحياناً مالا يستطيعون فعله بشبابنا، وهذا واقع مرير نعيشه، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

فلو نظرنا إلى الإعلام في بلادنا الإسلامية وإلى ما يحدث فيه من هدمٍ للقيم والأخلاق الكريمة، لوجدنا كارثة يندى لها جبين كل مسلم غيور على هذا الأمة، كارثة الإعلام في بلادنا هي من أكبر الكوارث وأعظمها، فهناك في بلادنا كوادر ضخمة تعمل جاهدة وبأموالٍ هائلة تُنفق لا لشيء إلّا لتأجيج الشهوة وإثارة الفتنة

(١) انظر الغزو الثقافي للأمة الإسلامية - منصور الخريجي دار الصميعي ط١ الثانية ١٤٢٠ هـ

وإفشاء الرذيلة..، أيها المسئولون عن الإعلام في بلاد المسلمين اتَّقُوا اللهَ تعالى وَاعلموا أن المسئُوليةَ تُجَاهَ شعوبكم ومجتمعاتكم عظيمة والْواجب نَحوهم كبِير، فَهم أمانة فِي الْأعناقِ، وَكلٌ مسئول عمن يعُول يوم القيامة: حتى على المستوى الأُسري الصغير يقول اللَّهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ {التحريم/٦}

وهذا نبينا يشدد أيّما تشديد على هذه المسئولية العظيمة وأمرنا أن نُعِد جواباً لما سيسألنا عنه سبحانه، ماذا فعلنا في أولادنا وشعوبنا ومَن هم تحت رعايتنا ومسئوليتنا، أحفِظنا الأمانة أم كنا سبباً كبيرا في ضياعها، عن عبد الله بنِ عمر رضي اللَّهُ عنهما يقول سمعت رسول اللَّهُ ﷺ يقول: (كلّكم راع وكلّكم مسئُول عن رعيته؛ الْإِمامُ راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأَة راعية في بيتِ زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئُول عن رعيته، والرجل راعٍ في مال أبيه ومسئُولٌ عن رعيته، وكلّكم راع ومسئُولٌ عن رعيته)

البخاري ومسلم.

وعن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن اللَّهُ سائلٌ كلّ راعٍ عمن استرعاه أَحَفِظ ذلك أم ضيعَ حتى يسأل الرجل عن أهلِ بيته)

صححه الألباني.

وعن معقِل بنِ يسارٍ رضي الله عنه قال سمعت رسول اللَّهُ ﷺ يقول: (ما

من عبدٍ يسترعيه ﷻ رعية يموتُ يوم يموتُ وهو غاشٌّ لرعيّته إِلَّا حرم ﷻ عليه الجنةَ) رواه مسلم. فهل يستطيع أي إنسان أن يتحمل أن تُحرم عليه الجنة التي يتمنَّاها كل مسلم ويُدخِل نفسه النار التي يتعوّذ منها كل الناس -نسأل ﷻ ألّاَ نكون من الغاشَّين لرعيتنا.

لو نظرنا فيما يُعْرض على شاشاتنا وفي بلادنا تجد أنه قَدْ كثرتِ الشرور، وعظمتِ الفتن، وصارت بسبب كثرتِها يرققُ بعضها بعضًا، ولعلّ في هذا مصداقا لقولِه ﷺ: (وإن أمتكم هذه جُعل عافيتها في أولها وسيُصيبُ آخرهَا بلَاءٌ وأُمورٌ تنكِرونها وتَجيءُ فتنةٌ فيرقِّق بعضُها بعضًا وتَجيءُ الفتنة فيقولُ المؤمنُ هذهِ مُهلِكتي ثم تنكَشفُ وتجيءُ الفِتنةُ فيقولُ المؤمنُ: هذه: هذه فمن أحبَّ أن يُزحزَحَ عن النار ويدخل الجنةَ فلتأته منيَّتهُ وهو يؤمن بالله وباليوم الآخرِ) رواه مسلم. ولقد تزايد في هذا الزمان كيد الكفار أعداءِ ﷻ وأعداءِ دينِه وأعداءِ عبادهِ المؤمنين، مستهدِفين ديار المسلمين يبتَغُونَ خَلخَلَة دينِهم، وزعزعة أمنِهم وإيمانهم، وتدمِير أخلَاقِهم وإفسادَ سلُوكهِم، ونشْرَ الفاحشَة والرذيلَة بيْنَهُم.

إنها رِياحٌ مهلِكة، وأعاصير مدمّرة، تعصفُ بالمبادئِ والقيمِ وتدمّرُ الأديان والْأخلَاق، وتقتلعُ جذُور الْفضيلة والصّلَاحِ، وتجتَثُّ أصولَ الحق واليقين، ومَن يتأمل هذه الْأضرار وتلكم الْأخطار الَّتي يجنيها من يُشاهد ما يبثُّه هؤلاء، يجِدها ما بين، أضرار عَقائدية، وأخرى اجتماعية، وثالثة أخلَاقيةٌ ورابعة فِكرية ونفسية، فمن الأَضرار العقائدية على سبيل المثال لا الحصر،

خلخلةُ عقائدِ المسلمين والتشكيك فيها وإضعاف عقيدة الولاء والبراء والحبّ والبغض؛ وبذلك يعيش الْمسلمُ منصرفا عن حب اللهِ وحب دينه وحب الْمسلمين إلى حب زعماء الباطل ورموزِ الفساد ودعاة الْمجونِ، إِضافة إلى ما فيها من دعوات صرِيحة إلى تقليد غير المسلمين في عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم وأسوأ ما عندهم، ومن الأضرار الاجتماعية والأخلَاقية ما يبثونُه في قنواتهم منَ دعوات صريحة وغير صريحة إلى الجريمة بعرض مشاهد متتالية للعنف والقتل والْخطف والِاغتصاب والإجرام، وتعليم السرِقة والاغتيال والاختلاس والتزوير والدعوة إلى الاختلاط والسفور والتعرّي، وتشبُّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، والدعوة إلى إِقامة العلَاقات الجنسية الْفاسدة؛ لتشيع الفاحشة وتنتشر الرذيلة وبهذا يصلوا لما أرادوا فينا.

أعلمُ أن ضررِ هذه القنوات الفضائية وقبيحِ عاقبتها ليس قاصر عليك فحسب بل على الجميع لكن أنت المقصود الأول، وهذه القنوات أشد وأضر من سحر هاروت وماروت، لأن ما يبصره المرء عبر ما تعرضه هذه القنوات لَابد أن يتأَثّر به وأن طال الزمن والشيطان يعمي ويصم، والإنسان منا قد يمضي سنين طَوِيلَةً في إِصلَاحِ أهله وأولَاده ثم يفسدهم الإعلام فِي لَحظَات قليلة إن لم ننتبه لأَنفسنا وأولادنا ومن نعول، ألا فَاتَّقُوا اللهَ أيها القائمون على أمورنا في شباب المسلمين.

تحديل

إذا ما نظرنا نظرةً فاحصة في القائمين على إعلامنا تجدهم وكأنهم يعملون لحساب أناس آخرين، فهذا فريق: يعمل على نشر الإباحية والمجون والتهتك وهدم كل القيم الأخلاقية للمجتمع، حتى أصبحنا نشاهد في القنوات الفضائية من الفقرات الإعلانية والأغاني المصورة الأفلام السينمائية ما لم نكن نتخيل مطلقا أنه يُعرض على شاشات تليفزيونية تدخل البيوت الآمنة لتهدمها، ناهيك عن الفضائيات والانترنت والصحف الصفراء والمجلات العارية من الأخلاق والحياء، ما لا يعقله إنسان ولا يخطر على قلب بشر.

فبعضهم: يعمل جاهداً على السُّخرية من الإسلام والمسلمين والملتزمين ويلصقون بهم الأوصاف والتُّهم التي تبث الرعب في قلوب المشاهدين –مسلمين وغيرهم– من كل مسلم ملتزم بدينه، فمثلا يصفونهم تارة بالإرهابيين، وتارة بالأصوليين، وتارة بالمتزمتين المتشددين الذين يسعون في الأرض فسادًا، ولا ندرى ما الإرهاب عندهم أهو الالتزام بالإسلام وقيمه..؟ أم أنه لابد من الانحلال والتسيب كما يريدون؟ وبكل ما يملكون من قوة وسلاح وكأنهم يدافعون عن الإسلام وأهله ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا

. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾{الكهف/١٠٣-١٠٤}

وهناك فريق: من هؤلاء يصورون الإسلام على أنه دين سلام فقط أو سلام سلبي وليس فيه قتال ولا جهاد ولا عزة...؛؛ حتى لو انتهكت حرمات المسلمين، وحتى لو سُلبت كل الحقوق واغتُصبت كل الأراضي واستسلمت كل القيادات، مع العلم أن الإسلام الذي أمر بالجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق، هو بنفسه الذي أمر بالسلام، ولما أمر بالجهاد وضع له ضوابط وأحكام، وسيرة الرسول وجهاده أكبر شاهد وأعظم دليل على هذا، وإلى الصحابة من بعده وهم يوصون الجيوش عند تسييرها للقتال في سبيل اللَّهِ.

من جرائمهم

يقوم الكثيرون من بني جلدتنا من القائمين على الإعلام لتشويه تاريخنا الإسلامي في نظر أبنائنا، من جهتين:

الجهة الأولى: عن طريق المسلسلات والأفلام وغيرها مما يسمونها زورا وبهتانا مسلسلات وأفلام دينية أو تاريخية.. فيصورون القادة العظام على أنهم يتكالبون على الدنيا أو على حطامها ويعملون من أجل عيون النساء وفقط، ويصورون أن غير المسلمين لهم اليد الطولي في تحرير وحفظ الأرض والعرض والدين، كما نرى ونشاهد كثيرا، وما خفي أعظم..

الجهة الثانية: عن طريق إبراز التاريخ الإسلامي على أنه مجموعة متراكمة من الفتن والكوارث، فالصحابة والتابعين والخلفاء يحارب بعضهم بعضا لأتفه الأسباب، وهمهم كله هو الدنيا وفقط، أو أنهم أصحاب غدر وخيانة، أو أن أيامهم كانت كلها حروب قائمة على الطائفية والمذهبية، فهذا يحارب هذا، وهذا يخون أو يُخَوّن ذاك، وهذا يغدر أو ينقض عهده من أجل الدنيا حتى نراهم -كما يصورهم هؤلاء المفسدون- أسوأ خلق الله، وإذا أرادوا أن يمدحوا شخصية إسلامية في جانب طعنوا فيها من جانب آخر، وإذا عظَّموا قائدا أساءوا إلى مائة منهم وهكذا [1]

(١) انظر كلمة إلى شباب الأمة بتصرف صـ ٧٦ مرجع سابق.

وهناك فريق: منهم يعظم الغرب ويفخم من إمكانياته، مما يصيب الشباب باليأس والإحباط بل والناس جميعا، حتى ظنّ الناس أنه لا حل إلا بمولاة الغرب مهما كانت الظروف، وهذا الأمر جاء على ألسنة زعماء وقادة تراهم دائما يرددون قولاً وعملاً من يستطيع اغضاب أمريكا أو روسيا أو دول أوربا، ومن يقف في وجهها ووجه أسلحتها، ومن هذا القبيل، حتى كانت الهزيمة من داخلنا، فانهزمنا نفسيا...، هذا هو الإعلام في بلادنا المسلمة أفسدوه ومن ثَمّ أفسدوا الشباب عن طريقه، حتى صرنا في مؤخرة الدول وذيل الشعوب ولكن: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ {الحج/٤٠}

وما فتئ الزمان يدور حتى ... مضى بالركب قوم أخرونا
وأصبح لا يُرى في الركب قـــو ... مي وقد عاشوا أئمته سنينا
وآلمني وآلـــم كـل حـــــــر ... سؤال الدهـر أين المسلمون

وها نحن نرى ونقرأ ونسمع كل وقت وكل ساعة ما يندى له الجبين من فقرات وإعلانات تهدف كلها في النهاية إلى ضرب الإسلام في أعماق الشباب، إلى هدم كل رمز جميل وكل قيمة من قيم المجتمع المتدين، وإلى تأجيج الشهوة في قلوب الشباب، وإلى زرع الإحباط واليأس في الشباب المسلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وإلا فما علاقة الفتاة العارية بإعلان عن سيارة أو أدوات مطبخ،

أو عن إطار سيارة أو مشروب يُشرب، أو طعام يُطعم وغير ذلك، ألسنا نشاهد كل ذلك أيها الشباب مما يثير الغرائز الكامنة في القلوب...، ولكن مع كل هذا الكيد والتخطيط إلا أنه هناك بوادر خير أن شاء اللَّهُ تعالى فكل هذه الفتن والمشاهد الإباحية ما هي إلا امتحان لكم أيها الشباب الصادق المخلص الغيور على دينه وعرضه ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ {آل عمران/١٤١}

وهناك فريق من القائمين على إعلامنا يَسْخر من اللغة العربية لغة القرآن، فمدرس اللغة العربية أو مادة الدين الإسلامي في إعلامنا ليس له قيمة، فتراه يظهر بملابس رثة، يتسكع في الطرقات وعمامته وهيئته غير مقبولة، وهكذا يسخرون من الإسلام ولغته وكل ما يمتّ له بصلة.

ولكن ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ {محمد/٣٥}

﴿وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ {النساء/١٠٤}

ولتعلموا..

﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ {آل عمران/١٧٩}

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ {الأنفال/٣٦}

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ {آل عمران/١٢٤}

نعم فأنتم الأعلون بإذن اللَّهُ، فمهما علا الباطل وانتفخ وانتفش فهو إلى زوال، وهذا هو الإعلام في بلادنا. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ {آل عمران/١١٨}

وهذا قليل من كثير عن هذا الإعلام والفساد والتضليل فيه، وتلك بعضاً من الأسباب التي أدت إلى انهيار مستوى كثير من الشباب المسلم واتساع الفجوة بيننا وبين من سبقونا من شباب السلف فعليكم أيها الشباب بالثبات ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾{الحج/٣٨}

﴿لَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ {الحج/٤٠}

وأسأل اللَّهُ أن يجعل بيوتنا كبيوت الصحابة وشبابنا كشبابهم وفتياتنا كفتياتهم أنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولي ونعم النصير...

﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ {يوسف/٢١}

وصايا

أيها الشباب المسلم وأيتها الفتاة المسلمة، إذا كنتم جادين في أن تنجحوا في الدنيا والآخرة وتريدون الرفعة لأمتكم!! وتحبون أن يأتي النصر على أيديكم!! فلابد أن تتحول أمنياتكم إلى إرادة قوية وعزيمة صادقة وعمل دائم دؤوب، وابدئوا من الآن ولا تُسَوّفوا ولا تُؤجلوا ولا تتعللوا بما تجدونه من معوقات، وها هي بعض الوصايا:

الأولى: احفظ لسانك

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ {ق/١٨} وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ {الأحزاب/٧٠} فهذا أمر من اللَّهَ بأن نتقي اللَّهَ في ألسنتنا وأن نقول قولا سديدا، لما فيه من صلاح لأعمالنا، وغفران لذنوبنا وما ذاك إلّا طاعة لربنا ولرسولنا، ولو أننا فعلنا هذا وحفظنا ألسنتنا فإننا سنفوز فوزا عظيما في الدنيا بالمحبة وكمال إيماننا، والمودة بين المسلمين، وفي الآخرة بالجنة، ولكن هل مِن القول السديد أن يُشهر بعضنا ببعض، ولا يحفظ بعضنا قدر بعض، ألم يقل اللَّهَ تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ {ق/١٨} ألم تعلموا يا من تقعون في أعراض إخوانكم المسلمين بحجة أنكم تُظهرون أخطاءهم حفاظا على الدين، أن أيّ قول يخرج من الإنسان المسلم في أخيه

المسلم فإنه محاسبٌ عليه، وليُعدّ جوابا لهذا الكلام الذي يقوله في عِرض أخيه، مثل هذا الكلام في أعراض المسلمين يدخل تحت إيذاء المسلمين والله سبحانه يقول عمن يؤذون المسلمين ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ {الأحزاب/٥٨}

لهذا أيضا يقول اللَّهُ سبحانه وتعالى عمن يطلقون لألسنتهم العنان في أعراض المسلمين أحيانا وفي العلماء أحياناً أخرى، وَيُري عينيهِ ما لم تريا ويُسمع أذنيه ما لم تسمعا: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ {الإسراء/٣٦}

إخواني في اللَّهُ: اسمعوا لما قاله الحبيب ﷺ المحب لنا، والذي يريد لنا أن نكون رحماء فيما بيننا من حديث أبي هريرة أن رسول اللَّهُ ﷺ قال: أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا: اللَّهُ ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول اللَّهُ ؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فقد بهته» رواه مسلم

والبهتان على البريء هي مصيبة من أعظم المصائب التي تضر بالمسلمين، ومن ثَمّ توغر صدورهم مثل الغيبة.

والغيبة كما قال فيها بعض السلف «الغيبة تورث قساوة القلب،

وإن أبعد ما يكون من ﷲ القلب القاسي»
لهذا يقول ﷲ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ {الحجرات/١٢}
مَن ابتُلي بشهوة الكلام في المخالفين، عليه أن يعرف بعضاً من القواعد التي حكاها العلماء حتى لا تضيع أعمالهم: «إن ما ثبت بيقين لا يزول إلا بيقين، والخطأ في الحكم بالإيمان أهون من الخطأ في الحكم بالكفر، وأنه لا تأثيم ولا هجران في مسائل الاجتهاد، التحفّظ عن تكفير فرد بعينه أو لعْنه، لنا الظاهر والله يتولى السرائر، أخطاء العلماء لا تقدح في إمامتهم وعلمهم..»
فاتقوا ﷲ عباد ﷲ واحفظوا ألسنتكم عن إخوانكم المسلمين ووجهوا جهودكم في الدفاع عنهم ضد أعدائكم وأعدائهم، فهم منكم وأنتم منهم واسمعوا لما يقوله النبيﷺ في بيانه للأمور التي يرضاها ﷲ والتي يكرههما، فما الذي يُرضي ﷲ وما الذي يكرهه حتى يجدني ﷲ حيث أمرني ويفقدني حيث نهاني، يقول المصطفى ﷺعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ «إن ﷲ يرضي لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا، يرضي لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل ﷲ جميعا ولا تتفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه ﷲ أمركم، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» البخاري مسلم

فلماذا القيل والقال في أعراض المسلمين مع العلم بأن اللهَ يكره ذلك؟

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي اللهُ عنهما عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلِم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجَر ما نهى اللهُ عنه»؛ متفق عليه.

واعلم يا من تقع في عرض أخيك المسلم أن رجلا سأل رسول اللهُ ﷺ قال يا رسول اللهُ أي المسلمين خير؟ قال: « من سلم المسلمون من لسانه ويده» قال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث «... والحديث عام بالنسبة إلى اللسان دون اليد، لأن اللسان يمكنه القول في الماضين والموجودين وحتى المعاصرين، وقد تشارك اليد اللسان في ذلك ولكن بالكتابة وأن أثرها في ذلك عظيم...»

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين رجليه وما بين لحييه أضمن له الجنة « لحييه أي لسانه ورجليه أي فرجه كناية عن الزنا» رواه البخاري

ولهذا نجد أن المنتسبين إلى الدعوة والعلم وأولياء الإسلام هم من أقل الناس انتاجيّة وثمرة في الواقع، ولعل أهم سبب لذلك هو التشرذم والتشتت، وذهاب الجهود في تدمير بعضهم بعضًا.

العلاج

يقول الشيخ سلمان العودة في كتابه الرائع (الأمة الواحدة)

بعضًا من القواعد لتوحيد الأمة وترشيد جهودها لما يفيدها.
يقول: «إن الجهود ليس من الضرورة أن تتطابق، ولكن من الممكن أن تكون خطوطًا متوازية، لا تلتقي ولكنها لا تتعارض أيضًا، وأن نفرّق بين الدعوة والحُكم، فالإنسان يجب ألا يَتَسَرَّع بالحُكم على الناس، وألاّ يُعمّم الأحكام، أما إذا كان المجال مجال دعوة فَعليه أن يصرف جهده وفكره ووقته إلى هداية الناس ودعوتهم إلى الخير، مع ضرورة التدرج في دعوتهم.
كما يجب التزام قاعدة «لك الغُنْم وليس عليك الغُرْم»، فإذا اقتنعت بِجُهد الآخرين فسَاعِدهُم، وأن لم تقتنع فَيَسَعُكَ الصمتُ، وأن تقدِّر جهود الآخرين، وتتجنب النقد الدائم لما يفعلونه، كما يجب ألا يجعل الإنسان من نفسه وصيًّا على الدعوة والصحوة، ويحجُر على الآخرين، رافضًا أيَّ حديث إلا إذا كان موافقًا لقناعاته الشخصية، وهذا يستوجب جوًّا من حسن الظن المتبادل، وعدم تصيّد الأخطاء والزّلات، والتماس الاعتدال في التفكير، وعدم الخوف من التغيير والتجديد، ونبذ التقليد والتعصب، وترتيب العداوات، فأيُّ عداء مع طائفة من دعاة الإسلام هو يقينًا أقل إلحاحًا من عداوة اليهود والنصارى والمنافقين»
عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» متفق عليه يقول النووي

في شرحه: قال الشافعي: ومعنى الحديث إذا أراد المسلم أن يتكلم فلابد وأن يفكر، فإن ظهر أنه لا ضرر عليه تكلم، وإن ظهر أن في كلامه ضرر أو حتى شك في ذلك أمسك...»

يقول ابن حبان في كتابه الرائع روضة العقلاء ونزهة الفضلاء «الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم فما أكثر من ندم إذا نطق، وما أقل من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاءً وأعظمهم بلاء من ابتلي بلسان مطلق وفؤاد مطبق»[1]

الواجب على العاقل أن ينصت أذنيه من فمه، ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر مما يقول، لأنه إذا قال ربما ندم، وأن لم يقل لم يندم، وهو على رد ما لم يقل أقدر منه على رد ما قال، والكلمة إذا تكلم بها ملكته، وأن لم يتكلم بها ملكها، وقيل الجاهل قلبه في طرف لسانه ما أتى على لسانه تكلم به، وما عقل دينه من لم يحفظ لسانه. عن أبي هريرة ﷺ أن رسول ﷺ قال: أن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط ﷺ لا يُلق لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب...» متفق عليه

يا من تَتَسَرَّعون في الحكم على الناس وفي الحكم على الدعاة والعلماء وتتكلمون في أعراضهم وتقعون فيهم وكأنكم قُضاةٌ

(١) نقلا عن رفقًا أهل السنة عبد المحسن البدر صـ ١٨.

عليهم من قِبَل اللَّهُ، والأدهى من ذلك أنكم تتهمونهم في دينهم وفي إخلاصهم وتقولون فيهم ما ليس فيهم... تتدخلون في النيات والقلوب وكان اللَّهُ أطلعكم على الغيب. عن معاذ بن جبل قال: قلت يا رسول اللَّهُ مُرني بعمل يُدخِلُني الجنة ويُباعدني عن النار فقال له النبيﷺ: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسيرٌ على مَن يَسَّره اللَّهُ عليه وذكر له النبي بعضاً من أركان الإسلام الهامة. ثم قال له يا رسول اللَّهُ وإنا لمؤاخذون بما تتكلم به قال: ثكلتك أمك يا معاذ: وهل يكُبّ الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» قال ابن رجب الحنبلي في شرحه لهذا الحديث في كتابه (جامع العلوم والحكم) قال والمراد بحصائد الألسنة جزاء الكلام المحرم وعقوباته، فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات، ثم يحصد يوم القيامة ما زرع من قول أو عمل..» وهذا يدل على أن كف اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير كله، وأن من مَلَك لسانه فقد مَلك أمره» ونقل ابن رجب أيضا عن يونس بن عبيد أنه قال: «ما رأيت أحدا لسانه منه على بال إلا رأيت ذلك صلاحاً في سائر عمله» وعن يحي بن أبي كثير أنه قال «ما صلح منطق رجل قط إلاّ عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطق رجل قط إلا عرفت ذلك في سائر عمله»[1]

(١) انظر رفقاً أهل السنة لعبد المحسن البدر دار المفتي للنشر ط١ - ٢٠٠٣ ، الرياض.

عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا وسفك دم هذا، فيُعطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته، حتى إذا فنيت حسناته أُخذ من سيئات صاحبه ثم طرحت عليه ثم يطرح في النار» رواه مسلم. فمن منا جميعا يستغني عن حسناته حتى يُعطيها للآخرين هكذا وبدون مقابل منهم، هكذا مثّلَ النبيﷺ مثالا لمن يتكلمون في الناس، لهم صلاة وزكاة وأعمال أمثال الجبال لكنهم ضيعوها بحماقتهم وجهلهم. ألم تعلم يا من تخوض في أعراض المسلمين، وتحتقرهم وتتكلم عنهم بازدراء، ألم تعلم أن النبي قال: «.. بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه وإن نظن به إلّا خيرا» رواه مسلم من حديث أبي هريرة. وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ خطب يوم النحر فقال: «يأيها الناس! أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: فأي بلد هذا؟ قالوا بلد حرام، قال فإن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، فأعادها مرارا، ثم رفع رأسه فقال: اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت قلنا نعم قال اللهم

فاشهد» فهذه حرمة الأعراض والوقوع فيها يا من تقعون في أعراض الآخرين، أحيانا نرى كتبا تؤلف لا لتذب عن أعراض المسلمين أو علمائهم ودعاتهم، بل لتتهكم بهم وتلفق لهم ما هم بريئون منه، وتكيل لهم الاتهامات ويدعون الناس لقراءتها ونسي هؤلاء أو تناسوا ما جاء عن النبيﷺ في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول ﷺ قال «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان له من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا».

لذلك فنجد الإمام الحافظ المنذري (في الترغيب والترهيب) يعلق على حديث «إذا مات بن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث» يقول: «وناسخ العلم النافع له أجره وأجر من قرأه أو نسخه أو عمل به بعده ما بقى خطه والعمل به لهذا الحديث وأمثاله، وكذلك ناسخ العلم غير النافع مما يوجب عليه الإثم والوزر، فعليه وزرهُ، ووزر من قرأه أو نسخه أو عمل به بعده ما بقي خطه والعمل به فمن سنّ سنّة حسنة أو سيئة.

كذلك القرآن الكريم يوضح مثالاً ممن يقعون في أعراض الآخرين ويكشفون سرهم ففي سورة المدثر يقول ﷺ تعالى حكاية عن أهل الجنة وهم يسألون عن المجرمين ولماذا هم في سقر:﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ .

فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ {المدثر/٣٨-٤٣}

فما تنفعهم شفاعة أحد لخوضهم في أعراض الناس، عن سعيد بن زيد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاث وسبعون بابا أدناها أن يزنيَ الرجل بأمه، وإن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم» صححه الألباني.

إن من أعظم الذنوب في الإسلام الربا ولكن أعظم منه الكلام في أعراض المسلمين والاستطالة فيها بالكلام، وهذا من أخطر ما يقع فيه المسلمون الآن وبخاصة الشباب المبتدئ في التزامه، وأمثالهم لهم جزاء رآه النبي بعينه فقال ﷺ فيما صححه الألباني من حديث أنس بن مالك أنه قال «.... لما عرج بي ربي عز وجل، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم « قال المناوي: لما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات، جعلها جزاءً لمن يقعون في أعراض المسلمين، إشعاراً بأنهم ليسوا من صنف الرجال، بل هم من صنف النساء في أقبح حالة وأشوه صورة، وقال الغزالي يحشر المزق لأعراض الناس كلبا ضاريا والسارق لأموالهم ذئبا مفترسا، والمتكبر عليهم بصورة مغبرة، وهذا وعيد شديد على

الغيبة والكلام في الناس، قال النووي في قوله: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه...»[1] قال: والحكمة في هذا التشبيه هو إشارة إلى أن عِرض الإنسان كَدَمِه ولحمه، وهذا من باب القياس الظاهر، وذلك أن عِرض المرء أشرف من لحمه، فإذا لم يحسن هذا العاقل أكل لحوم الناس، لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولي، لأن ذلك آلَمُ أوجع له، ولما كان القول في الوجه يؤلم، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يولم، فأكل لحم الأخ وهو ميت يؤلم أيضاً، ومع هذا هو غاية في القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم، كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه. قال القشيري: «لا تحصل الغيبة من الخلق إلا بالغيبة عن الحق»

نعم والله إنها لقاعدة مهمة يجب على كل مسلم أن يعلمها وأن يعمل بها قال ابن عباس ﷺ «الغيبة إدام كلاب الناس» قال ابن حجر في الفتح من حديث أبي هريرة أن النبيﷺ قال: «من أكل لحم أخيه في الدنيا قُرّبَ ليأكله يوم القيامة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا فيأكله ويكلح ويصيح» والجزاء من جنس العمل. أخرج أحمد وغيره عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ إذ هاجت ريح نتنة، فقال النبيﷺ «هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين» وعن سفيان الثقفي «أنه قال

(١) انظر الجزاء من جنس العمل للعفاني ج ٢ ص ٢٨٥ وبعدها بتصرف.

قلت يا رسول ﷲ أخبرني عن الإسلام أو قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال «قل آمنت بالله ثم استقم » رواه مسلم. وفي رواية عن النسائي قلت يا رسول ﷲ ما أخوف ما تخاف على قال: هذا وأشار بيديه إلى لسانه.

وعن أبي هريرة أن رسول ﷲ قال لما سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: « تقوى ﷲ وحسن الخلق وأكثر ما يدخل الناس النار قال «الفم والفرج» أخرجه الترمذي وصححه.

وروى أن معاذ: قال يا رسول ﷲ أي العمل أفضل ؟ فأخرج رسول ﷲ لسانه ووضع إصبعه عليه وقال هذا « وما جاء عن أبي بكر الصديق أن عمر بن الخطاب رأي أبا بكر وهو يمد لسانه ويمسكه بيده فقال له: ما تصنع يا خليفة رسول قال: هذا الذي أوردني الموارد ورسول ﷲ قال «ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى ﷲ اللسان». وهذا ابن مسعود رضي الله عنه كان على الصفا يلبي وسمعه الناس وهو يقول يا لسان قل خيرا تغنم أو اسكت عن شر تسلم وإلّا فاعلم أنك ستندم، فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء تقوله أم سمعته؟ فقال لا بل سمعت رسول اللهﷺ يقول: «إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه» وقال ابن عمر من كف لسانه ستر ﷲ عورته، ومن ملك غضبه وقاه ﷲ عذابه، ومن اعتذر إلى ﷲ قَبِل

الله عذره» وروى عن رسول الله قال: «ألا أخبركم بأيسر العبادة، وأهونها على العبد قيل بلي يا رسول الله الصمت وحسن الخلق»

الثانية: إياكم الظن

وصية من الصادق الأمين ﷺ قال فيما رواه عنه أبو هريرة: «إياكم والظن فأن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب المسلم من الشر أن يحقر اخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، وأشار بيده إلى صدره ثلاث مرات...» متفق عليه. وقال ﷺ أيضا فيما صح عنه من حديث ابن عمر رضي الله عنه أن النبي طاف بالكعبة ثم قال ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفسي بيده لحرمة الإنسان المسلم أعظم عند الله حرمة منك، دمه وماله وعرضه، وإن نظن به إلا خيراً « هذا توجيه نبوي للمسلمين عامة حتى تكون بينهم الألفة والمحبة وتدوم بينهم الأخوة.

والتجسس كما عرفه البعض إنما هو التنقيب عن عيوب الناس وأخطائهم وتتبع زلاتهم وهفواتهم ونشرها، وكل هذا إنما يحدث تبعا لإساءة الظن بالآخرين، وهؤلاء الذين يتتبعون عورات المسلمين

فضلا عن علمائهم قد نسوا أو غفلوا عما جاء عن النبيﷺ فيما صح عنه وهو ينادي جميع المسلمين بقوله «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورة مسلم تتبع اللهُ عورته وفضحه ولو في قعر بيته» إذن فكمال الإيمان ترك الظن السيء بالآخرين وقد صح عن النبي عن الحسن بن على قال «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» وقال أيضاً «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه» قال الإمام بكر المزني «إياك من الكلام ما إن أصبت فيه لم تؤجر وإن أخطأت فيه أثمت، وهو سوء الظن بأخيك» ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملا» كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره لهذه الآية، يقول الشيخ سلمان العودة في كتابه (من أخلاق الداعية) يقول: ومنذ سقوط الخلافة الإسلامية قامت في العالم الإسلامي دعوات وحركات كثيرة، تهدف إلى استئناف الحياة الإسلامية، والحكم الإسلامي، أو إلى استمرار الدعوة بين المسلمين وغير المسلمين، أو إلى إحياء السنة، أو ما شابه ذلك من الأهداف النبيلة، وهذه الدعوات تختلف في منهاجها وأُسُسِها وأهدافها، وتختلف في قُربها أو بُعدها عن منهج الكتاب والسنة، وقد تحدث كثيرون عن هذه الدعوات، ودرسوها من جوانب مختلفة، لكن الأمر الذي تكاد أن تفقده في كثير من

هذه الدراسات هو» العدل والإنصاف « فكثير من الكُتّاب ما بين مُنتَمٍ لهذه الدعوة، مُعجب بمناهجها وطرائقها، فهو يكيل لها المدح كيلاً، ويدعي وصلاً بليلي! وآخر متحامل عليها لا يرى فيها إلا كل نقيصة، وبين هذا وذاك تضيع الحقيقة، والله تعالى يحب العدل، ويكره الجور، ومن قصّر في جانب فلا يلزم أن يكون مقصراً في كل جانب، ولا يسوغ أن تُنسِيكَ سيئاتهم القليلة حسناتهم الكثيرة.

فأحياناً تسمع البعض يتحدث عن فئة من الدعاة إلى اللَّهَ فيحولهم إلى مجموعة من الشياطين، حتى إنه يُفسّر نطقهم بالشهادتين تفسيراً يصرفه عن معناه المباشر الظاهر، ويُؤَوِّل تصرفاتهم تأويلاً قد يَصْدق في بعضها ولا يصدق في كثير منها، والتعميم في هذا الموضع خطأ، بل يجب لمن تصدى للحديث عن الدعوات ومناهجها التفصيل والدقة وضبط العبارة وذكر الجوانب المشرقة إلى جوار الجوانب المظلمة، فمن العدل ألا نتجاهل بدعتهم بحجة أنهم أحسنوا في أمور، كما لا نتجاهل حسناتهم بحجة أنهم أصحاب بدعة، بل نجمع بين الأمرين وأن نحسن الظن بالجميع.

كما أن هناك جهود في ميدان الدعوة إلى اللَّهَ تعالى لا ترتبط بفئة معينة، فهي عمل جهادي أو دعوي تضافرت عليه هِمَم المؤمنين، أو طوائف منهم، وهي جُهد بشري يخطئ ويصيب، وليس له من العصمة نصيب، ولذلك فإن من المصلحة الظاهرة أن» تُقوّم «

هذه الأعمال تقويماً صحيحاً معتدلاً، يحقق الانتفاع بالإيجابيات، وتوسيعها وتعميقها، وتلافي السلبيات والخلاص منها، لئلا تتكرر الأخطاء نفسها ويعود المسلمون من حيث بدأوا.

ولكن هذه المصلحة الظاهرة قد تضيع بين طرفين: طرف يرى هذا العمل كاملا لا عيب فيه، فيرمي بسهام الاتهام والشك والتشكيك كل من يوجه نقداً أو ملاحظة، وطرف لا يُبصر ولا يرى إلا العيوب، حتى لا يكاد يرى في هذا العمل شيئاً يمكن الانتفاع به.

ولهذا قال أبو قلابة الجرمي كما في حلية الأولياء لأبي نعيم: «إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذرا فقل في نفسك لعل لأخي عذر لا أعلمه» وقال سفيان بن حسين «ذكرت رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية، فنظر في وجهي، وقال لي: يا أخي أغزوت الروم؟ قلت: لا، قال: فالسند والهند والترك؟ قلت: لا، قال: سبحان الله أفيسلم منك الروم والهند ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟ قال السائل فلم أعُد بعدها لمثلها» (البداية والنهاية –لابن كثير) وما أحسن هذا الجواب من إياس بن معاوية الذي كان مشهوراً بالذكاء وهذا الجواب نموذج من ذكاءه، فيا ليت أهل عصرنا يدركون هذه بدلا ممن يتصيدون الأخطاء للأخرين وأحياناً يخطئونهم وهم ليسوا مخطئين، قال: بن حبان في روضة العقلاء: «الواجب على العاقل أن يلزم

السلامة بترك التجسس على عيوب الناس وأن يشتغل بإصلاح عيوب نفسه، فإن من انشغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه ولم يُتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب في نفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن من انشغل بعيوب الناس عن عيبه عميَ قلبه، وأتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وصار عند نفسه أفضل الناس، فيصيبه المرض الخطير وهو العُجب، والعاقل يحسن الظن بإخوانه وينفرد بهمومه وأحزانه، كما أن الجاهل يسئ الظن بإخوانه ولا يفكر في جناياته وأشجانه» (انظر الجزاء من جنس العمل للعفاني) لذلك قال أبو هريرة المنافق يرى القذة –هي حبة الرمل– في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه، وقيل طوبي لمن شغله عيبه عن عيب غيره، وقال ابن عباس إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوب نفسك، يقول ابن القيم رحمه الله في مدارج إن تعييرك أخاك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه وهو أشد معصية، لما فيه من صولة الطاعة وتزكية النفس وشكرها والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وإن أخاك باء به ولعل كثرته بذنبه وما أحدث له من الذلة والخضوع والازدراء على نفسه والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس خاشع الطرف منكسر القلب أنفع له وخير من صولة طاعتك وتكثرك بها والاعتزاز بها، أسقاه الله بهذا الذنب دواء أستخرج به داءً قاتلاً هو فيك ولا تشعر «وقيل من سعادة المرء

أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره».

لمرء أن كان عاقلاً ورعـــاً أشغله عن عيوب الناس ورعه
كما السقيم المريض يشغله عن وجع الناس كلهم وجعــه

وقال آخر:

لا تكشفن مساوئ الناس ما ستروا فيهتك الله ستراً عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكـــروا ولا تعب أحداً منهم بما فيكـا

سمع أعرابي رجلاً يقع في الناس فقال قد استدللت على عيوبك بكثرة ذكرك لعيوب الناس، لأن الطالب لها يطلبها بقدر ما فيه منها، وكان يقال ظلم منك لأخيك أن تقول اسوأ ما تعلم فيه، وإلاّ فأين ميزان القسطاس الذي وضعه ﷻ لهذه الأمة؟

وهل هذا هو الاتباع الحقيقي لرسول الله ﷺ؟ الذي كان يعرف للناس أقدارهم، ولا يبخسهم أشياءهم، وكان يُثني على الإنسان بما فيه من خلال الخير، ولو لم يسلم من الأخطاء!

أليس قد أثنى ﷺ على النجاشي، وَوَصَفَه بأنه «مَلِك لا يُظلم عنده أحد» مع أنه حينها كان كافراً لم يسلم بعد؟!

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة ولكن عين السُّخط تُبدي المساويا
إذا كان المحبّ قليل حـــظٍّ فما حسناته إلا عيوبـــــــا!

ويجب أن يتطلع الدعاة وطلاب العلم، إلى الأحكام العادلة التي

تمسك الميزان من وسطه وتنظر نظرة معتدلة متوازنة تحرص ألا تتأثر بالعواطف سلباً أو إيجاباً

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ {المائدة/٨}

قال أبو عاصم النبيل لا يذكر الناس بما يكرهون إلا سفلة لا دين لهم[1]. وفي صحيح الجامع عن أبي سعيد أن النبيﷺ قال: «ما أكفر رجل رجلاً قط إلا باء بها أحدهما «

الثالثة: الرفق واللين

فما كان الرفق في شيءٍ إلّا زانه.. ولو نظرنا في القرآن وهو يتحدث عن صفات المؤمنين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ {الفتح/٩٢}

إن مما يُؤسف له في عصرنا ما يحدث من بعض أهل السنة من وحشة واختلاف فيما بينهم على بعض الفروع المختلف فيها أصلاً والتي لن يكون فيها اتفاق أبدا، وذلك نظراً لاختلاف العلماء في فهمهم للنص أصلا، وترتب على ذلك انشغال بعضهم ببعض تجريحا وتحذيرا وهجرًا وتفسيقا وتكفيرا في بعض الأحيان،

(١) انظر الجزاء من جنس العمل مرجع سابق.

في حين كان من الواجب عليهم تجميع جهودهم وتوجيهها إلى غيرهم من الكفار والمنافقين والظالمين المعتدين، وأن يُذَكّر بعضهم بعضا برفق ولين.

ولنا هنا عدة نصائح تساعد على ذلك ومنها: الرحمة بالمخطئ، واللين والرفق به، وسَعة الصدر له، وحسن الثقة، ومقابلة الإساءة بالصبر الجميل، وطلب الثواب عند اللَّهَ، والترفُّع عن محاكاة السفهاء في القول أو الفعل، وتدريب النفس على الصبر والتسامح، وحفظ المعروف لأهله، ووضع المصلحة العامة في الاعتبار، ولابد لنا أن نعرف أن للاختلاف أسباباً عدة، حتى نرفق بمن ندعوهم، فالاختلاف يُعد أمرًا طبيعيًّا؛ بسبب اختلاف التكوين الفطري والنفسي من إنسان لآخر، كما أنه قد يعود لاختلاف التحصيل حسْب قدرة كل شخص، أو لاختلاف الظروف، كما أن الاختلاف يرتبط بهوًى في نفس الإنسان. ويلفت الشيخ العودة إلى أنه إذا وقع الاختلاف، فيجب على الإنسان أن يراعيَ عدة أمور، منها: إلا ينسب الشخص رأيه واجتهاده إلى الدين، كما يجب التركيز على جوانب الاتفاق أكثر من جوانب الاختلاف، وهو ما يتطلب تعاون المختلفين على البرّ والتقوى، ومراعاة التخصّص، والتفريق بين الثوابت والمتغيرات وفي كل الأحوال، وإذا تعذر الاتفاق، فيجب أن نبقى على خطوط متوازية، فلا يلزم أن نتقاطع دائمًا إذا اختلفنا، أو يدمّر بعضنا

جهود بعض، كما يجب إعطاء الأزمات والمحن التي تضرب الأمة حقها وأولويتها الواجبة، وأن نُهدِّئ من عوامل الفُرقة والشقاق بين أهل السنة حتى نُزيلها، والاختلاف

إخواني في الله ليس مذمومًا بإطلاق، بل منه ما هو محمود؛ فالاختلاف المذموم هو الاختلاف على الكتاب والسنة، أو لاتّباع الهوى، وقد يكون الاختلاف محمودًا، مثل اختلاف التنوُّع، فهناك من المسلمين من يَبرع في الجهاد، وآخر يمتاز في الفقه، وثالث في الطب، وهكذا كلٌّ يؤدي دوره في خدمة الأمة. وإذا كان الاختلاف بين المسلمين محمودًا أحيانا، فإنه لابد وأن تبقى دوماً «أخُوَّة الإيمان» هي القاعدةَ التي تَحكم هذا الخلاف، وأن المؤمنين إخْوة، وهذه الأخُوّة تشرق وتتجلي، فلا تختص بوقت دون وقت، ولا بمكان دون مكان، وفي أحلك المواقف وأشدها، حتى حينما يقع عليك عدوان، أو ظلم من أخيك، فهذا لا يعني أن أخوَّته قد زالت، كما أن الإنسان قد يقع له تقصير في دينه مثلًا فيكون عنده انحراف أو معصية أو غير ذلك، لكن ما دام يصح له وصف الإسلام فله أصل الحقوق، وإذا تم له كمال الإيمان كملت له الحقوق. الرفق واللين هما صفتان مطلوبتان لكل مسلم فضلا عن أن يكون داعيا إلى الله ألم يقل النبيﷺ فيما رواه مسلم وهو يقول: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ويعطي على الرفق

ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه» وروى مسلم عن عائشة عن النبي قال: « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيئ إلا شانه « ولذلك فهاك صفات لابد أن يتصف بها كل من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، مع العلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقتصران على فئة معينة من الناس بل كل مسلم نطق بالشهادتين وعنده من العلم ما يستطيع أن يجعله يستدل على ما يقول، وهذه الصفات منها:

١- أن يصرف من يريد إرشاده عن الرذيلة إلى الفضيلة بالتلويح في المقال والتعريض في الخطاب ما أمكنه ذلك فالتعريض والتلويح بالرفق واللين أعظم تأثيرا في قلب السامع، وخذ مثلا من القرآن الكريم لرجل يدعو إلى اللَّهُ إنه صاحب ياسين الذي حكى اللَّهُ حكايته في القرآن ليكون قدوة لنا، ﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ . وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ . إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ . إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ {يس/٢٠-٢٥}

انظروا إخواني وتأملوا في هذه الموعظة وهذا المنهج الذي لا يثير غضبا ولا يحدث فتنة، فهو لم يعمد لنصح أهل القرية بما فيهم صراحة بل تحدث عن نفسه بما يريد أن يصرفهم عنه.

وهذا سيدنا يوسف لما دخل السجن في «مصر « أيام العزيز، قص ﷲ علينا منهجه في الدعوة إلى ﷲ تعالى، وأنه لم يترك أي موقف مهما كان حتى يبلغ دعوة ربه ولكن بأسلوب يرضي ﷲ تعالى ويجذب الناس إلى دعوته الصحيحة، وانظروا ما جاء القرآن في السورة التي سميت باسمه يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ {يوسف/٣٧}

إنه يتكلم مع الذين لا يؤمنون بالله، ومع الذين يشركون بالله ولكنه يعرّض لا يصرح وكان هذا داعيا للقبول منه لا للصد عنه.

٢- ومن الصفات المطلوبة للدعاة خاصة والمسلمين عامة عند أمرهم بمعروف أو نهيهم عن منكر، التّلطّف في القول والترفق في المعاملة، وهذه الصفة أمثلتها كثيرة جدا في القرآن والسنة وأبلغ ما جاء في القرآن الكريم يعضد هذه الصفة قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ {النحل/٢٥}

ومن الأمثلة أيضا حوار سيدنا إبراهيم مع قومه في سورة الأنعام وغيرها من السور والحوارات كذلك بين الرسل وأقوامهم كما في سورة الأعراف، وحوار مؤمن آل فرعون في سورة غافر، ومؤمن آل ياسين، وغيرها من الأساليب التي كانت صفة الرفق واللين أهمها

في دعوة الآخرين أو الحوار معهم بالحسنى، والجدال معهم بالتي هي أحسن.

من رفق النبي

أمثلة أيضا في السنة المطهرة من رفق النبي ولينه ورحمته في دعوة العصاة من المؤمنين، عن أبي أُمامة ﷺ «أن غلاما شابا أتى النبي ﷺ فقال يا نبي الله ائذن لي في الزنا! فصاح الناس به فقال النبي ﷺ قربوه مني وقال له أدن مني فدنا حتى جلس بين يديه فقال النبي له أتراضاه لأمك؟ فقال الشاب لا يا رسول الله جعلني الله فداك فقال النبي له بكل رفق ولين وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أترضاه لأبنتك؟ قال الشاب لا يا رسول الله جعلني الله فداك، قال النبي له وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم.. أترضاه لأختك...حتى ذكر له النبي العمة والخالة وهو يقول للنبي في كل واحدة لا يا رسول جعلني الله فداك... فوضع رسول الله يده على صدره وقال اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه، فقال الشاب يا رسول الله والله ما كان شيء أحب إلى قلبي من الزنا والآن يا رسول الله ما من شيء أبغض إلى قلبي من الزنا...» صححه الألباني. كيف كان حال الشاب قبل هذا الموقف! وإلى أين وصل وبعد مقابلته للنبي وما رأي من رفق ولين منه هذا هو الإسلام وهذا هو الرسول.

وما قصة الأعرابي الذي بال في المسجد عنا ببعيدة وكيف كان موقف النبي منه لما قال للصحابة الذين همّوا به... دعوة وأريقوا على بوله سجلا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين. وقصة الأعرابي الذي جاء يتقاضى النبي في دين له ولما أعطاه النبيّ ﷺ دينه وقضى له قال له النبي هل أحسنت؟ فرد عليه الإعرابي بقبح قائلا ما أحسنت ولا أجزلت ولا جزاك اللهُ خيراً، وقال في النبي ما قال فهّم به الصحابة فردهم النبي ﷺ عنه وأعطاه، وأعطاه حتى رضي ورد على النبي ﷺ ردا حسنا جميلا، فأمره النبي أن يقول أمام الصحابة ما قاله له بينهما، فقاله هذا الأعرابي أمامهم لقد أحسنت وأجزلت وجزاك اللهُ خيراً، فانبهروا به وأعجبهم كلامه فوجه النبي ﷺ إليهم بل وإلينا جميعا كيفية التعامل مع العصاة، وشبه ذلك بالبعير الشارد الذي لو قام الناس إليه لفر منهم ولكن لو تركوه وصاحبه وترفق به هو (صاحبه) وأمسك له من خشاش الأرض لوقف له ورجع إلى صاحبه، وهكذا الداعي مع المدعو حتى قال النبي في هذه القصة أما والله لو تُركتم إليه لقتلتموه ولدخل النار..» نعم لقد صدق من سماك «رؤوف رحيم» والذي قال فيك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ {الأنبياء/١٠٧}. وحسبنا ما أوردناه هنا والأمثلة كثيرة جدا.

٣- ومن مقومات وصفات المسلم في دعوته للغير، أن يذكره بخير

ويصفه بجميل صفاته الموجودة فيه، فكل إنسان فيه خير وشر، فمثلا تُبين ما فيه من فضل، وما يتمتع به من نعمةٍ، ثم توجه له الموعظة التي تريد توجيهها له.

والقرآن أيضا مليء بمثل هذه الصفات في توجيه الغير، خذ مثلا عن اليهود الذين هم أهل الغدر والخيانة لما يريد القرآن أن يدعوهم فكيف يخاطبهم؟ تجد القرآن لا يذكر صفاتهم الخبيثة الموجودة فيهم، بل يذكرهم بما فيهم من صفات وما حازوه من مناقب، فيناديهم بأحب الصفات إليهم وأحسنها وما فيها تشريف لهم، فيقول اللَّهُ تعالى في أكثر من موضع في القرآن وهو يذكرهم بنعمته عليهم حتى يرجعوا إلى اللَّهُ تعالى فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ {البقرة/٤٠}

فيذكرهم بجدهم إسرائيل «يعقوب» ثم يقول لهم أوفوا بعهدي، وإيايَ فارهبون، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا...ويقول في موضع آخر: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ {البقرة/٤٧}

ثم بعدها يقول لهم واعظا وزاجرا لهم: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ {البقرة/٤٨} وغير ذلك من الحوار في القرآن كثير.

وهذا الذي مَرَّ بعضاً من صفات لابد منها لكل مسلم يريد أن

يدعوا إلى ﷲ على بصيرة،كيف لا وقد أمر رسولنا ﷺ بالرفق ورغب فيه فقال فيما أخرجه البخاري من حديث أنس «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» وما رواه مسلم عن النبي ﷺ أنه قال «من يحرم الرفق يحرم الخير».

وعن أبي هريرة «من لا يرحم الناس لا يرحمه ﷲ» متفق عليه. قال المناوي قيل الرفق في الأمور كالمسك في العطور، وروى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسك بفيه، ثم رقي فسقى الكلب فشكر ﷲ له فغفر له...» هذا هو الرفق في الأمور كلها فما أحوجنا إلى مثل هذه الصفة الآن.

وقد وصف ﷲ تعالى الصحابة الكرام بصفة هي من أهم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها المسلمون فقال سبحانه وتعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ {الفتح/٢٩}

الوصية الرابعة:نعمة الوقت

وهي وصية ما أهمها بالنسبة للشباب في عصرنا هذا أكثر من أي

وقت مضى فكما قال أحد الدعاة في وصاياه عن هذه النعمة فقال:(الواجبات أكثر من الأوقات فأَعِن غيرك على الانتفاع بوقته، وإذا كانت لك حاجة فأسرع في قضائها) فعليكم باغتنام هذه النعمة العظيمة التي لا تُقدر بثمن مهما عَظُم، إنها نعمة الوقت فحقاً هي نعمة عظيمة أنعم الله بها على كل إنسان، فهي رأس مال الإنسان، ولكن مع الأسف فإن أكثر الناس يقومون بتضييعها وأصبحوا لا يعرفون قدرها، بل وهم مغبونون فيها فكما عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال ﷺ (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ) رواه البخاري.

الوقت يا شباب الإسلام غنيمة مفقودة كما سماها رسول الله فيما صححه الألباني عن عبد الله بن عمرو وغيره قال: قال رسول الله ﷺ: ''اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك وفراغك قبل شغلك'' فرأس مال الإنسان عمره، وأعلم أخي في الله أنك ليس لك عُمْراً آخر حتى يُجرَّب العمر الأول ويغتنم الثاني، واعلم يا كل مَن تُضيع عمرك وتهدر وقتك، أن إضاعة الوقت من علامات المقت، وأن الوقت إنما هو عمار أو دمار، وأن الوقت أغلى ما في الحياة بل أن الوقت هو الحياة. ألم يقل الشاعر الحكيم:

دقات قلب المرء قائلة له أن الحياة دقائق وثواني
فاخلد لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثاني

وقال آخر

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه وأُراه أسهل ما عليك يضيع

أيها الشباب المسلم: فُرِّطَ في الوقْت وقلتْ قيمتهُ عند كثير من الناسِ بسبب ما يسعى إليه أعداءُ الأمة في محاولة جادَّة لصرف المسلمين عنِ استثمارِ أوقاتهم بجلب العبث لهم وتهيئة وسائله المخْتلفة من آلات ملهيةٍ، وألْعابٍ مُسلّيةٍ إلى غير ذلك ممَّا غزا الأفكار وسلبَ الْعقُولَ والأذهانَ وذَلِك عبرَ الأفلامِ والقنواتِ المخْتلفة الَتي شغلَ المسلمون بها الآن، قال الْإمامُ ابن الجوزِيّ رحمه اللَّهُ: (رأيتُ عمومَ الخلَائقِ يدفعون الزمن دفعا عجيبًا، إن طَال اللَيل فبشيءٍ لا ينْفع وإن طَال النهار فبالنوم المغرِقِ وهم في أطْرافِ النهارِ على دجلَة أو في الأسواقِ، ولقد شاهدت خلقا كثيرا لا يعرِفون معنى الْحياة، فمنهم من يخلوا بلعب الشطرنجِ ومنهم من يقطّعِ الزمان بكثرة الْحواديث فعلمت أن اللَّهُ تعالى لم يطْلع على شرف العمرِ ومعرفة قدْرِ أوقاتِ العافية إلا من وفَّقهُ وأَلْهمَه اغتنام ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ {فصلت/٣٥}

إن الفراغ من أجلّ نعم اللَّهُ على عباده وليتذكّر من رزقه اللَّهُ الوقت والفراغ أقواما غيرهم ربما لا يجِدون لَذَة الراحة وليحمد اللَّهُ وليستعن بِه على طَاعة اللَّهُ وليصْرِفه لله وحدهُ دون سواه

قال ﷺ (نعمتان مغْبون فيهِما كَثِير من الناسِ الصحة والفراغ).
صدقت يا ابن الجوزي فوالله لكأنك تعيش معنا الآن في عصرنا وللعلم فإن أبا الفرج ابن الجوزي توفي عام (٥٩٧) ولكن كلامه كأنه يعيش بيننا الآن، فيا ليت قومي يعلمون.
أن مما يؤسف له حقّا أن يعيش شبابُ المسلمين لَا يبالون بإضاعة أوقاتهم سدى في الْمدرّجات والْملاهي والأَسواقِ والأَرصفة والمنتزهات ليلهم ونهارهم ضياع ولهو، لَا في أمرِ دنيا يستغلّون ولا في أمرِ أخرى يعملون.
إخواني الشباب: إنكم مسئولون عن أعماركم غدا في أي شيء أنفقتموها؟ وفي أي عمل أضعتموها؟ فماذا أنتم قائلون لربكم غدا؟ قال رسول الله ﷺ فيما صح عنه: (لا تزولُ قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم).
إخواني الشباب إن الشباب فرصة، والفراغ غنيمة يجب أن لا تضيعها، ومن لم يفعل ذلك فسوف يتجرع كؤوس الندم عندما يتقدم به السن قائلاً يا ليتني عملت وأنا شاب، عندي من القوة والفتوة ما جعله الله ﷻ مُعينا لي على العبادات والطاعات، إنك أخي الشاب الآن لست مطالبا بتكاليف دنيوية كثيرة، ومن كان خاليا من الأعباء الزوجية والأولاد –وهي مسئوليات كبيرة ولا مفر

منها- إذن فهو الآن في نعمة حقا ما بعدها نعمة في نعمة يجب أن يغتنمها في العمل المستمر الذي يعود عليه وعلى أمته بخيري الدنيا والآخرة، وإلا فسيندم ساعة لا ينفع الندم وليجعل نفسه مكان هذا الشيخ المتحسر على شبابه إذ يقول:

ألا ليت الشباب يعود يوما لأخبره بما فعل المشيب

من خصائص الوقت

الأولى: سرعة انقضائه، إذ لما كان الوقت سريع الضياع، وكان ما مضى منه لا يرجع ولا يعوّض بشيء كان الوقت لذلك أغلى وأعظم ما يملك الإنسان، فالوقت هو حياة أي إنسان، انظر إلى سلفنا الصالح بماذا يتواصون؛ هذا أبو بكر الصديق ﷺ يقول لعمر بن الخطاب حين استخلفه بعده «اعلم يا ابن الخطاب أن لله عملا بالنهار لا يقبله بالليل وعملا بالليل لا يقبله بالنهار» إذن فليس المهم أن يعمل الإنسان أي شيء في أي زمن بل المهم أن يعمل الإنسان العمل المناسب في الوقت المناسب، لذلك جعل الله تعالى العبادات والفرائض تؤدى في وقت معين ومحدد لا يجوز التقدم عليها ولا التأخر عنها، ولنعلم بذلك أن الشيء لا يُقبل قبل أوانه ولا بعد أوانه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ {النساء/١٠٣}

يقول الامام أحمد بن حنبل «ما شبهت الشباب إلا بشيء كان

في كمي ثم سقط» فالوقت يمر كلمح البصر بل هو أسرع، وقال ابن مسعود ﷺ «ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي»

إنا لنفرح بالأيام نقطعهـــــا وكل يوم مضى جزء من العمر

الثانية: من خصائص الوقت أن ما مضى منه لا يرجع وهذا أمرلا يختلف عليه اثنان، يقول إمام الدعاة الحسن البصري «ما من يوم ينشق فجره إلا وينادى يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني إذا مضيت لا أعود إليك أبدا، فوالله لو سألنا أهل المقابر ماذا تشتهون؟ لقالوا: نُردّ إلى الدنيا فنعمل صالحا» إذن فعلى العاقل اغتنام هذه الفرص التي لا تتكرر حتي لا يشتهي أن يرجع مرة أخرى ووقتها لا ينفع الندم.

الثالثة: أن العمر أشرف ما يملك الإنسان وأكثر شيء يحتاج إليه، وهذا ابن الجوزي رحمه ﷺ تعالى لما علم أن الزمان أشرف من أن تضيع منه لحظة كان يقول له بعض الناس (الذين سماهم بالبطالين) انتظر يا أبا الفرج نكلمك، فكان يرد عليهم بقوله امسكوا الشمس أن تغرب أو عمري أن يمضي، كناية عن استحالة أن يُضيع من وقته لحظة واحدة فإن النبي ﷺ: قال: (من قال سبحان ﷺ العظيم وبحمده غرست له بها نخلة في الجنة)

وذلك ليبين لهم الحاجة الماسة لأن يغتنم الناس أوقاتهم فيما ينفعهم .

ولذلك كان سلفنا الصالح يحرصون على ألا تمر ساعة إلا في منفعة، خذ مثلاً من أمثلة لا تُحصى في تاريخ أمة الإسلام أبي البركات مجد الدين وهو جد شيخ الإسلام ابن تيمية: كان إذا دخل الخلاء يقول لجليسه: اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى اسمع حتى لا يضيع من وقتي شيء، وهو صاحب الكتاب المشهور (منتقى الأخبار من كلام سيد الأخيار) وهو الذي شرحه شيخ الإسلام في عصره الإمام الشوكاني في (نيل الأوطار)

وهذا الامام أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي يقول: «إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مناظرة أو قلمي عن مذاكرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح فلا أنهض إلا وقد خطر ببالي ما أُسَطّره» وكان إذا أراد الأكل يأكل فُتات الخبز ويقول: «بين مضغ الخبز وأكله كَفُتَات يمكنني أن أقرأ خمسين آية» رحم الله هذا الزمان الذي يَعرف فيه الناس قيمة وقتهم وبقينا في زمان كل همنا الأكل والشرب والسهر مع الأصحاب، حتى أن الجلسة على الأكل فقد تستغرق ساعات وساعات وبحجة أن هذا من الكرم المحمود، وأن هذه هي عاداتنا ولابد من احترام عاداتنا، وكأن هذه العادات قرآن نزل أو سنة يجب اتباعها، والوقت الذي هو أغلى وأعز ما

يملكه أحدهم ليس له عنده أي احترام ولا تقدير.
وهذا الإمام ابن الجوي يقول عنه سبطه: سمعت ابن الجوزي يقول على المنبر في آخر عمره «لقد كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وقرأت بعيني هاتين عشرين ألف مجلدة وأسلم على يدي أكثر من ألفٍ غير مسلم، وتاب على يدي ألفاً من العاصين، وقد جمّعت برايه أقلام ابن الجوزي التي كتب بها الحديث فحصل منها شيء كثير فسخن بها ماء غسله وزاد منه.

لماذا نضيعه

أولاً: «التسويف»

يُخيل للبعض أن الأيام ستَفْرُغ له في المستقبل من الشواغل، وتصفو له من المكدرات والعوائق، وأقول: اعلم أخي الحبيب أنك كلما كَبُرت سنك كثرت معها مسئولياتك، وزادت علاقاتك، وضاقت أوقاتك، ونقصت طاقاتك، فالوقت في الكِبَر أضيق، والجسم فيه أضعف، والنشاط فيه أدنى، والشواغل أكثر، فبادر أخي بساعات العمر وهي سانحة، ولا تتعلق بالغائب المجهول، فكل ظرف مملوء بشواغله وأعماله ومفاجآته.

ومن أجمل ما قيل:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذّبتك نفسك ليس ثوب قديم كالجديد من الثياب

ثانياً: «الجهل بقيمة الوقت»

كيف لا؟! والناس أعداء ما جهلوا، فالجاهل بنعمة الوقت وقيمة الفراغ وبما قاله ﷺ ورسوله فيه سهل عليه أن يُضيع هذه النعمة، ولا يعرف كيف يستثمرها فكثير من الشباب يقول إنني أعاني من الفراغ،ومن يقول أنني أريد أن أقتل الوقت وهذه نتيجة الجهل بالوقت.

ثالثاً: «ضياع الهدف عند الشباب»

يجب على كل مسلم أن يكون هدفه دائما في عقله وفي قلبه وفكره وهو إرضاء ﷺ عز وجل والفوز بالجنة، ثم يجب عليه أن يجعل للوصول لهذا الهدف الكبير والغالي وسائل للوصول إليه، من العمل في أبواب الخير، أو أن يجعل لنفسه برنامجا لحفظ القرآن ثم ليجعل أولاده أيضا برنامجا ووقتا ليعيش معهم ويُعلمهم، ومن ثم يُدربهم على ما ينفعهم في دنياهم وأُخراهم... وهكذا يجب أن يكون المسلم في وقت فراغه، إن كان عنده فراغ أصلا.

رابعاً: صحبة البطالين (العاطلين).

وحسبنا هنا أن نأخذ شيئا من الوصايا من علمائنا والذين يجب علينا الاقتداء بهم فمنهم هذا العالم العلاّمة إمام الزمان في الحرص على الوقت ابن الجوزي رحمه ﷺ يقول «رأيت الزمان أشرف شيء والواجب انتهازه بفعل الخيرات فصرت أدافع اللقاء جهدي مع الضيوف، فأن غُلبت في ذلك منهم قَصرتُ في الكلام

لأتعَجَّل فراقهم، ثم أعددت أعمالا أنا أحتاج إليها ولكنها لا تمنع من المحادثة في أوقات لقائهم، لئلا يمضى الزمان فارغاً فأكون ضيعت عمري هباءً، ومن ذلك مثلاً تقطيع الأوراق وترتيبها، أو بَرْيِ الأقلام وتنسيقها، أو حزم الدفاتر وترتيبها، وما إلى ذلك من هذه الأشغال والتي غالبا ما أشغلهم معي فيها.

معروف الكرخي – رحمه اللهُ – أطال عنده قوم وشغلوه فقال: إن ملك الشمس لا يفتر عن سَوقها، أفما تريدون القيام؟

عمر بن العزيز رحمه اللهُ قالوا له: هلا تفرغت لنا: قال لهم وأين الفراغ ؟ لقد ذهب الفراغ فلا فراغ إلا لله تعالى، ولا مستراح إلا تحت شجرة طوبي.

إذا كان يؤذيك حر المصيف وكرب الخريف وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الربيع فأخذك للعلم قل لي متى؟

كيف تغتنم أوقاتك؟

١) الاستعانة بالله تعالى وحده.

٢) صحبة العاملين المجتهدين واجتناب البطالين.

٣) تحديد الأهداف وترتيب الوسائل للقيام بها.

٤) معرفة قيمة الوقت وأنه أغلى الأشياء التي لا تُشترى بأموال الدنيا.

٥) مطالعة أخبار السلف الصالح وكيف كانوا حريصين على الوقت.
٦) العزلة قدر الإمكان عن الناس الذين يشغلونك عن مهماتك.
٧) محاولة تغيير العادات السيئة عند أصحابك وفي المجتمع من المضيعات، للأوقات كالجلوس على موائد الطعام بالساعات الطوال مع الحديث فيما لا فائدة فيه.
٨) ترتيب أولوياتك الأهم فالأهم، ولا تُطلق لنفسك العنان حتى لا تضيع أوقاتك هملا، وتعيش سُدى بلا إنجاز لعملك.
٩) قم بتقسيم الأهداف الكبيرة إلى أهداف جزئية (صغيرة) حتى تستطيع القيام بها ومن ثمّ تحقيقها.
١٠) حدد لكل هدف ولكل وسيلة وقتاً زمنياً مناسبا لها ومراعاة ذلك.
١١) تنظيم الأعمال واغتنام الأوقات.
٢١) لابد أن تتيقن أنك تأخذ بالأسباب وفقط، وهذا مما حثنا عليه الإسلام لكن النتائج من اللَّهُ.
٣١) ليكن عندك أمل وتفاؤل في المستقبل ورجاء في اللَّهُ وطمع فيما عنده، فإن حدث ما تأمله وترجوه فلله الحمد والمنّة ولعل فيه خير لك، وإن لم يتحقق لك ما أردت فلا تيأس ولا تقنط وحاول مرات ومرات مع التغيير في الأسلوب أو الطريقة أو استفد من خبرات السابقين وتجاربهم (وأيضاً لعل ذلك خير لك ولا تعجز)

والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

٤١) جدول عملي يومي بخطة زمنية محكمة ومناسبة لكل عمل ستقوم به.

وأخيرا إخواني في ﷲ فهذه نصيحة من ابن الجوزي لابنه وأنا أقدمها لكل الشباب لعلها يكون فيها الموعظة لنا قال – رحمه ﷲ تعالى – « اعلم يا بني أن الأيام تُبسط ساعات، والساعات تبسط أنفاساً، ولكل نَفَسٍ خزانة، فاحذر يا بني أن تُذهب نَفَسٌ بغير شيء ينفعك فتجد في المقام خزانته فارغة فتندم ساعة لا ينفع الندم.

وفي الحديث «من قال سبحان ﷲ العظيم وحمده غرست له نخلة في الجنة» فانظر إلى مضيع الساعات كم يفوته من النخيل الكثير في الجنة، ومن تفكر في الدنيا يرى أنها طويلة لكن لها نهاية، ولكن اعلم أن اللبث في القبور طويل جداً وإن كان له نهاية، لكن إذا تفكر الإنسان في المكث في الجنة أو النار حتما سيتيقن أنه لا نهاية لهما، فإذا أعاد النظر في بقاءه في الدنيا فإذا كان عُمْرُه ستين سنة – مثلا – فأنه يمضي عشرين سنة في النوم ونحواً من خمس عشرة سنة منه في الصغر والباقي شهوات وأكل وشرب وطعام وشراب.. الخ.فإذا خَلُصَ للآخرة وجد فيها من قلة العمل وإن كان هناك عمل ففيه من الرياء والغفلة والجهل الكثير والكثير، إذن فبماذا ستشتري الحياة الأبدية..؟ وأين الثمن لما عند ﷲ.

إذا بلغ الفتى ستين عامـا فنصـف العمـر تُمضـيه الليـالي
ونصف النصف يمضي ليس يدري وباقي العمر هم واشتغالِ[1]

نعم لقد صدقت يا ابن الجوزي فسلعة الله الغالية وهي الجنة يريد أن يشتريها ابن آدم بقليل من العمل في الدنيا بل وأحيانا يستكثر عمله من الطاعات.

وأخيراً: حاسب نفسك أولاً بأول فوالله سيأتي يوم يود المرء لو كانت حياته كلها على ما يريده منه ربه.

أسأل الله سبحانه أن نكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

الخامس: اعرف دينك وحاسب نفسك

أيها الشاب تعرف على دينك من خلال مصادره الأصلية الصحيحة، لأنه كيف يمكن لإنسان مسلم لا يعرف عن الإسلام شيئا، وكيف تتمسك بدين لا تعرفه؟ أو سنة أو منهج أنت تجهله؟ وكيف تسير في طريق أنت تفتقد إلى معالمها؟[2]

عليك بالتربية على الإيمان إذ هو الدعامة الأساسية والقوية لنا كمسلمين وهو أساس الحياة الصالحة لكل من أراد السعادة في الدنيا والآخرة، والإسلام هو النور الذي يضيء جوانب الحياة ويرشد إلى أقوم السُبل، وهو الذي يهدي القلب ويعصمه من

(١) الشباب ونعمة الوقت بتصرف.

(٢) كلمة إلى شباب الأمة ص ٨٤ بتصرف مرجع سابق.

الضلال وهو الذي يوجه صاحبه إلى كل خير.

الإسلام إخواني: ليس كلمات تقال أو شعارات ترفع، وإنما هو عقيدة وعبادة، وسلوك وأخلاق، وعمل ومعاملات، وقيادة وجندية، ودولة ووطن،...الخ.

أخي الشاب أعرف دينك «لأنه أساس الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، هو سند العزائم في الشدة، وبلسم الصبر عند المصائب، وعماد الرضا والقناعة بالحظوظ وإن كانت قليلة من الدنيا، وهو عزاء القلوب إذا نزل الموت أو قرُبَت أيامه، ودينك الإسلامي هو العروة الوثقى بين الإنسانية ومُثُلها الكريمة[1].

أوصيك أخي الشاب بأن تتعرف على الإسلام من مصادره الصحيحة ومن علمائه الثقات ولا تلهث نحو الشرق أو الغرب فالإسلام منهج حياة المسلمين «أمَّا كيف تحاسب نفسك فهذا أمر في غاية الأهمية خاصةً مع تكالب الناس على الدنيا وعلى المادة التي جعلت الرجل يقتل أخاه ويلعن والديه وينسى أقاربه وأصدقائه وهكذا، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: متحدثاً عن المحاسبة للنفس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ {الحشر/٨١}

فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ هذا أمرٌ بالمحاسبة للنفس على

(١) الإسلام والشباب ص ٣٢ ، ٣٣ بتصرف مرجع سابق.

ما قدَمت لغدها المنتظر، وأنه لينبغي للمسلم أن يحاسب نفسه دائما؛ لأن ذلك من طرقِ إصلاح النفسِ وتأْديبِها وتزكيتها وتطْهِيرِها؛ لما روى الترمذي عن النبِي ﷺ: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أَتبع نفسه هواها وتمنى على اللَّهِ الأماني). إن المسلم المحاسب لنفسه هو الذي لا تنقضي فترة من الزمنِ إلَا وأمعن النّظَر في عمله، وما أفاده من عمل صالح ليستزِيد منه، ويحمد الله أن وفقه إليه، أو يرجع على نفسه بِاللومِ، ويقسرها على التوبة الصادقة لو زلّت به القدم ليستصلح الفارطَ من أمرِهِ قبل أن تشهد الخلَائقُ على إفلَاسه في يومٍ لا يكون فيه تعوِيض للخسارة، ولا يكُون فيه فداءٌ، بل يستقبِل طُول العناء، ويجزى على النَقير والقطْمِير.

أَخِي الْمسلم إنك تعمل في هذه الحياة في ليلك ونهارِك تطْلُب السبب الذي تسعد به في الدارِ الآخرة، ترجو أن تكرم بِرضوان اللَّهِ تعالى فيها، وكانت الدنيا هي موسم العمل، فلذلك كان عليك أن تنْظُرَ إلى الْفَرَائِضِ الْوَاجِبَةِ عليك، كَنَظَرِ التَّاجِرِ إلى رَأْسِ مَالِهِ، وَتَنْظُرَ إلى الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ كَالْخَسَارَةِ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ، ثُمَّ تَخْلُو بِنَفْسِكَ سَاعَةً مِنْ آخِرِ كُلِّ يَوْمٍ تُحَاسِبُ نَفْسَكَ فِيهَا على عَمَلِ يَوْمِكَ، فَأن رَأَيْتَ نَقْصًا فِي الْفَرَائِضِ لُمْتَ نَفْسَكَ وَوَبَّخْتَهَا، وَقُمْتَ إلى جَبْرِهِ فِي الْحَالِ، فَأن كان مِمَّا يُقْضَى قَضيْتَهُ، وَأن كان مِمَّا لَا يُقْضَى جَبَرْتَهُ بِالْإِكْثَارِ مِنَ النَّوَافِلِ، وإن رأيت نقصا

فِي النَّوَافِلِ عَوَّضْتَ النَّاقِصَ وَجَبَرْتَهُ، وإن رَأَيْتَ خَسَارَةً بِارْتِكَابِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ بِارْتِكَابِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي مِنْ غِيبَةٍ وَنَمِيمَةٍ وَغِشٍّ أو نَحْوِ ذَلِكَ اسْتَغْفَرْتَ وَنَدِمْتَ، وَأنبْتَ وَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ مَا تَرَاهُ مُصْلِحًا لِمَا أَفْسَدْتَ، ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ {النور/٣١}

نبينا كيف كان يُحاسِب نَفسه، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَالله أني لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إليه فِي اليوم أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً».

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أيها النَّاسُ تُوبُوا إلى اللَّهِ، فَأني أَتُوبُ فِي اليوم إليه مِائَةَ مَرَّةٍ» وَفِي لَفْظٍ: «إنهُ لَيُغَان على قَلْبِي وَأني لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي اليوم مِائَةَ مَرَّةً».

كان عُمَرُ ﷺ إذا جَنَّ عليه اللَّيْلُ يَضْرِبُ قَدَمَيْهِ بِالدِّرَّةِ وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: ماذا عَمِلْتَ اليوم؟ وَعَنْ أنسٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ يَوْمًا وَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ حَائِطًا، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ – وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ جِدَارٌ وَهُوَ فِي جَوْفِ الْحَائِطِ –: أنت عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ! بَخٍ، وَالله لَتَتَّقِيَنَّ اللَّهَ ابْنَ الْخَطَّابِ أو لَيُعَذِّبَنَّكَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ {الكهف/٢٨} قَالَ: أَضَاعَ أَكْبَرَ الضَّيْعَةِ؛ أَضَاعَ نَفْسَهُ، وَعَسَى مَعَ ذَلِكَ أن تَجِدَهُ حَافِظًا لِمَالِهِ مُضَيِّعًا لِدِينِهِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾{القيامة/٢} قَالَ: إن الْمُؤْمِنَ وَالله مَا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ، مَا أَرَدْتُ بكلمتي، مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي، مَا أَرَدْتُ بِحَدِيثِ نَفْسِي، وَأن الْفَاجِرَ يَمْضِي قُدُمًا مَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ. وأن مِمَّا يُعِينُ الْمُسْلِمَ على مُحَاسَبَتِهِ لِنَفْسِهِ أن يَنْظُرَ فِي نِعَمِ اللَّهِ تعالى عليه وَجِنَايَتِهِ فِيمَا مِنَ اللَّهِ تعالى وَمَا مِنْهُ، فَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ لَهُ التفاوت، وَيَعْلَمُ أنهُ لَيْسَ إِلَّا عَفْوُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ أو الْهَلَاكُ وَالْعَطَبُ، يَعْلَمُ أن كُلَّ نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ فَضْلٌ، وَكُلَّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، يَعْلَمُ أنهُ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ بِتَزْكِيَتِهِ لِنَفْسِهِ مَا زَكَتْ أَبَدًا، وَلَوْلَا هُدَاهُ مَا اهْتَدَتْ أَبَدًا، وَلَوْلَا إِرْشَادُهُ وَتَوْفِيقُهُ سبحانهُ لَمَا كان لَهَا وُصُولٌ إلى خَيْرٍ أَبَدًا الْبَتَّةَ، فَحِينَئِذٍ يَقُولُ حَقًّا: (أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ على وَأَبُوءُ بِذَنْبِي).

فالواجب علينا جميعاً أن نحاسب أنفسنا حساباً دقيقاً ودائماً على ما قدمنا من أعمالنا وماذا سيظهر لنا في صحائفنا يوم القيامة هل يا تُرى نكون ممن يأخذ كتابه بيمينه نسأل اللَّهَ لنا جميعاً ذلك والعياذ بالله نكون ممن يأخذ كتابه بشماله فتكون الحسرة والندامة فمثلاً أيها الشباب المسلم: أن ذهاب عام من عمر الإنسان منّا تعني ذهاب ثلاثمائة وستين يوماً من عمرك، وتلك الأيام والليالي تحوي أعداداً كثيرة من الساعات وأضعافها من الدقائق والثواني، كما تحوي عدداً من الأعمال دقت أو جلّت، صلحت أو خبثت، وتحوي أيضاً في طياتها عدداً من الخطرات

وألوانًا من الحركات.

إن المؤمن حينما يُودِعُ مرحلة من عمره، ويستقبل أخرى فهو في حاجة ماسة لمحاسبة نفسه وتقييم مسارها في ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وإنه لحريٌ بنا أن نقف مع أنفسنا وقفات للمحاسبة والمراجعة فوقفة نتساءل فيها عن أيامنا الماضية كيف قضيناها ؟ ووقفةٌ ننظر فيها في سجل أعمالنا بماذا ملأناه؟ إن كان خيراً حمدنا ربنا على ذلك وشكرناه، وإن كان غير ذلك تبنا إلى ربنا واستغفرناه، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وهلاك النفس من اهمال محاسبتها ومن موافقتها، واتباع هواها..»

إن المحاسبة هي أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدَر من أفعال نهاره، فإن كان ذلك الفعل محموداً أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركه ما أمكن، وانتهي عن مثله في المستقبل، إنها باختصار كما يقول ابن القيم رحمه الله: على العبد أن يميز بين مالَهُ وما عليه فيستصحب ما لَهُ ويؤدي ما عليه لأنه مسافر سفراً من لا يعود، ولقد ضرب السلف الصالح رحمهم الله لنا أروع الأمثلة في محاسبة أنفسهم وتقويمها، وما ذاك إلا لعلمهم بمكانة المحاسبة ومنزلتها، فها هو سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهُو من هُوَ، يقصد حائطاً يكلم نفسه قائلاً: عمر أمير المؤمنين بخ.. بخ والله يا ابن الخطاب لتتقين الله أو ليعذبنك، وقال

ميمون بن مهران: « لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه «، ونقل عن ابن الصُّمَّة وهو أحد الزهاد العباد أنه جلس يوماً يحاسب نفسه فعد عمره فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها، فقال واحسرتاه لو أنني عملت كل يوم ذنباً واحدا لكانت الألاف من الذنوب، فكيف وأنا أعمل كل يوم عشرات الذنوب، وأخذ يصرخ وهو يقول: يا ويلتي أألقي الله بواحد وعشرين ألف ذنب؛ كيف لو رأيتنا ورأيت حالنا اليوم فماذا ستقول لنا.

أخي الحبيب لئن كان أصحاب الأموال والتجارات يوقفون أعمالهم ويغلقون متاجرهم من أجل جرد حساباتهم في آخر كل عام مالي، فالمسلم العاقل فضلاً عن طالب العلم ورجل الدعوة أولى من جميع الناس أن يحاسب نفسه دائما، لأن هذا هو سبيل ربحنا في الدنيا وطريق نجاتنا في الآخرة.

أيا عبد الله: انظر في صحائف أيامك التي خلت، ماذا ادخرت فيها لأخرتك، وماذا قدمت لدنياك، أُخلُ بنفسك ساعة وحاسبها، ماذا تكَلَّمَ اللسان، وماذا رأت العينان، أين مشت تلك الأقدام، وإلامَ استمعت الأذنان، اسألها عن قوة الإيمان وضعفه، عن الصلاة وأدائها، عن المال من أين تجمعه وفيم تنفقه؟ اسألها: عن عامها الجديد، ماذا ستقدم فيه لنفسك، وماذا

ستقدم لأهلك وولدك، وما هو نصيب أمتك؟ أيها الشباب: من حاسَبَ نفسه قبل أن يُحَاسَب خَفَّ في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبهُ ومآلهُ، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسرته، وطالت في عرصات القيامة وقفته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئته.

إخواني في اللهُ: إن أعظم موعظة وأبلغ عبرة هي ما يستفيدها المسلم من مُضِيّ الأعوام وتعاقب الليالي والأيام، وأن يدرك أن هذه الدنيا ليست بدار قرار، أيامها ماضية، وزهرتها بالية، وزينتها فأنية، عيشها نكد، وصفوها كدر، والمرء منها على خطر، الدنيا إما نعمة زائلة، أو بلية نازلة، أو مصيبة موجعه، أو ميتةً قاضية أيها الناس إنما هذه الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هي دار القرار. يقول ابن عمر رضي الله عنه: (أخذ النبي ﷺ بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك)).البخاري فطوبي لمن لم تشغله دنياه عن الاستعداد للدار الباقية، وهنيئاً لمن جعل دنياه معبراً للدارالآخرة وميداناً للتنافس في الصالحات الباقية، قال ﷺ «من كانت الآخرة همه جمع اللهُ شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه فرق اللهُ عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له» رواه

أحمد.

أيها الأحبة في ﷲ إن أمتكم الإسلامية لهي حُبلي بالمشكلات، ثكلي بالفتن والمغريات، تخلت عن دينها، فخضعت لأعدائها، وشُغلت بدنياها، فتداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، والله سبحانه لن يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. فاللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير واجعل الدنيا راحة لنا من كل شر، اللهم اجعل أعمالنا طاعة وتقبل منا الأعمال الصالحة اللهم لا تدعنا في غمرة ولا تأخذنا على غرة، ولا تجعلنا من الغافلين آمين، آمين، آمين.

السادسة: العبادة في الإسلام

إن العبادة التي أمرنا ﷲ بها أكبر من فهمنا القاصر لها، يقول سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ {الذاريات/٥٦} فالعبادة بمفهومها الشامل لكل ما أراده ﷲ « فالصلاة عبادة ولكنها لابد و أن تؤتي ثمارها المرجوة وإلا فلا معنى لها ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾{العنكبوت/٤٥} فهنا عبادة نعم لكن لها مفهوم شامل بيّنه ﷲ لنا، فأين ثمارها الأخلاقية، وهي تغرس في نفس من يؤديها التواضع والرحمة، كما

تبعده عن الموبقات، وعن ارتكاب الدنايا والأخطاء وتصفي الروح، وتزيح الأعباء التي تثقل كاهل الإنسان «أرحنا بها يا بلال» كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

والصيام مثلاً يقول عنه تعالى شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾{البقرة/١٨٣} وقول رسولنا ﷺ: (...فإذا كان صوم يوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب وأن سابّه أحد أو قاتله فليقل إني صائم مرتين) والحج أيضاً: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾{البقرة/١٩٧} وقول رسول ﷺ عن الحج وثمرته (ومن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه) وجميع العبادات كذلك لها فوائد وثمار وأسرار وأهمها الأخلاق التي هي من أهم ثمارها «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، لذا لو نظرنا للعبادات في الإسلام لوجدنا أنها لابد على كل من يؤديها أن تؤثر فيه وفي أخلاقه، وإلّا فلا معنى لها، ولنستمع صح عن رسولنا ﷺ أنه «ذُكر له عن امرأة، من كثرة صيامها وصلاتها، وصدقتها، إلّا أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: هي في النار، ثم ذكر للنبي عن امرأة من قلة صلاتها وصيامها وصدقتها، وأنها تتصدق بالأسوار من الأقط، إلّا أنها لا تؤذي جيرانها بلسانها، قال هي في الجنة» العجيب أنه ﷺ بَيّنَ الأجر الأخروي، ولم يقل بطل الصوم أو فسدت الصلاة مثلا أو الصدقة بل قال ما قال: من ضياع الثواب الأخروي،

المعنى أن هذه العبادات وإن كانت هذه المرأة تؤديها ظاهراً إلّا أن هذه العبادات لم يكن لها مردود أخلاقي على الذي يؤديها فهي كأنها لم تؤدَّى أصلاً. والعياذ بالله. فلا أجر عليها لأنها لم تؤتي ثمرتها المرجوة منها، لذلك فإن للعبادات ثمرات إن لم يَجنها العبد فلا أجر له عليها، فهذا مفهوم العبادة في الإسلام إنها ليست عبادات وطقوس تؤدَّى بلا معنى حتى قيل «لو لم يكن ما جاء به محمد دينا لكان بين الناس خلقا حسنا»

حقاً عبادات الإسلام الشاملة دعت رجلا من المستشرقين يقول عن الإسلام «يا له من دين لو كان له رجال'' حقاً..إنها الشمولية في مفهوم العبادة فهل أدركت معنى قوله تعالى «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» ولما ابتعدنا عن روح العبادة قيلت في المسلمين المقولة المشهورة «رأيت في أوروبا مسلمون بلا إسلام ورأيت في بلادنا إسلام بلا مسلمون»

قِيلت فينا هذه المقولة لبعدنا عن مفهوم العبادة الشاملة، فكل ما نفعله حتى من عادتنا إنما نريد به وجه ﷲ ونتعبد ﷲ به فعادة مشروعة مباحة + نية صالحة = عبادة.

فأين نحن أيها الشباب من الإسلام وعبادات الإسلام الذي جاء ليحكم البشرية ويجعلها تسير في طريق الصلاح والإصلاح في الأرض.

فهذه شمولية الإسلام تجعل كل مسلم يَسأل ويُسأل عن كل ما

يفعله، فمثلا ماذا أفعل عند النوم أو عند الأكل أو حتى عند دخول دورة المياه وعند الخروج منها وعند الحديث مع الآخرين، وعند السير في الطريق وعند دخول المنزل وعند الخروج منه، وماذا أفعل مع الوالدين ومع الأستاذ والشيخ ومع المسلمين عموما وحتى مع غير المسلمين..؟ماذا عن حق الله علينا ؟ وحق الرسول علينا؟ وحق المسلمين علينا؟ وماذا عن حق الجار والزوجة و.. و..؟!! إذن فالإسلام لم يترك لنا صغيرة ولا كبيرة إلّا وعلمنا إيّاها، قال ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولاهي تركتها تأكل من خشاش الأرض»

ما أعظم هذا الدين وما أرحمه بالمخلوقات، فما قيمة العبادات إذا لم تظهر ثمرتها على من يؤديها، وهو أثر هذه العبادات على الفرد وعلى المجتمع من حولك، فكل ما شرعه الله لنا من عبادات وأمرنا بها، لها مهمة في حياتنا وتربيتنا وتهذيب أخلاقنا والإسلام ما تركنا هكذا بل وضح لنا كل شيء.

الوصية السابعة: المسجد

المسجد هو أول شيئ قام به النبي ﷺ عندما دخل النبي المدينة لِوصل القلوب بالله تعالى وفيه يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ {التوبة/١٨}

وفي الحديث يقول النبي ﷺ «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» رواه الترمذي.

فالمسجد يتربى فيه المسلم على طاعة الله، ويسمع فيه الموعظة الحسنة، وفيه يتعلم أمور دينه، وما يتصل بتنظيم أمور الدين والدنيا، وفيه تتعلم القرآن والسنة، وفيه تعرف الحلال والحرام، وتعرف فيه أحوال المسلمين، آمالهم وآلامهم في الشرق والغرب، وفي المسجد تغشانا الرحمة وتتنزل السكينة، وتحفنا فيه الملائكة بأجنحتها، وفي نهاية المجلس ينادي مناد من قبل الله على من في المسجد أن قوموا مغفوراً لكم قد بُدلت سيئاتكم حسنات، المسجد كانت تُسَيّر منه الجيوش، وفيه تُقَابل الوفود وفيه تعقد عقود الزواج بين المسلمين، وفي المسجد كان يتعلم المسلمون العلوم المختلفة، المسجد تخّرج منه أفضل جيل عرفته البشرية على الإطلاق بعد الأنبياء وهم الصحابة، المسجد يكون فيه كل ما يتعلق بالمسلمين من أمور دنياهم وآخرتهم، فمثلا صلاة الجماعة في المسجد الله عز وجل كثّرَ الحسنات في صلاة الجماعة ليدفعك إلى المسجد دفعاً وأيضاً لأنه حماية للفرد والمجتمع. ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾{التوبة/١٨}

فالمداوم على صلاة المسجد وعمارته مؤمن مشهود له بالإيمان، فإذا فَترَ الفرد لحظة كان بعضهم عونا للآخر وكذلك المواعظ

بعد الصلوات كدروس المساء أو خطب الجمعة وغير ذلك من الدروس، كل هذا يصب في النهاية في بنائك كفرد مسلم صالح في نفسه، مصلح لغيره.

إذا لهذه الأسباب وغيرها يُذَّكر النبي أمتهُ بفضل المشي إلى المسجد والمكث فيه فيروي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « من غدا إلى المسجد أو راح أعد اللَّهُ له نُزلاً في الجنة كلما غدا أو راح» ثم إن الأجر أعلى والفائدة أكمل. والمسجد في عهد النبي ﷺ هو أول شيئ فعله بعد وصوله المدينة وذلك لوصل الإنسان المسلم بربه وسرعان ما غدا المسجد النبوي رمزا لكل ما يتسم به الإسلام من شمولية وتكامل أو تكافل فكان مركزا روحيا لممارسة الشعائر وأداء العبادات، وكان دائرة سياسية وعسكرية لتوجيه العلاقات الدولية داخليا وخارجيا، كما أصبح مدرسة علمية وتشريعية يجتمع في ساحتها كل من يريد أن يتعلم أمور دينه ودنياه، كما تدار في أفنيتها الندوات واللقاءات، وتُلقي على منابرها المواعظ كما أصبح المسجد مؤسسة اجتماعية يتعلم فيها المسلمون النظام الإسلامي والمساواة، كما تمارس فيه شعائر التوحيد، الأمر الذي جعل المسجد يزدحم بالوظائف والمهام، وغدا على بساطته مجمعا تلتقي فيه وتصدر منه كل فعاليات الحكومة المسلمة وعلاقاتها الداخلية والخارجية على السواء، لقد كان المسجد هو الخلية الأولي في البناء الاجتماعي للأسرة والجماعة

المسلمة وذلك بوصفه أداة انصهر فيها المسلمون بعضهم في بعض، وجعلهم في وحدة فكرية واحدة وذلك من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيوع وسائر العقود وإقامة المناسبات المختلفة كاستقبال الوفود وغيرها...، إذن فلم يكن المسجد معبدا أو مقرا للصلاة وفقط، بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه، متكاملا في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع....، هذا هو المسجد في الإسلام فهل يعود المسجد إلى سابق عهده؟.

فالمسجد هو الذي تخرّج منه سلفكم الصالح الذي قاد الأمم وساد العالم في أقل من ربع قرن أو قل في مدة لا تساوي في حساب الدنيا شيئا؛ إنه المسجد الذي صُنع فيه خير جيل عرفته البشرية.

الثامنة: من صديقك؟

فمهما تقدمت أخي الشاب في طريق الإيمان فإن صحبة السوء تُعيدك من حيث بدأت، ففي القرآن ﴿الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ {الزخرف/٦٧}

ويقول في آية أخرى ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ {الفرقان/٢٨-٢٩}

قال شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري رحمه ﷲ في تفسيره لهذه الآية: (ويوم يعض الظالم.....).... يعض الظالم نفسه المشرك بربه على يديه ندماً وأسفاً على ما فرّطَ في جنب ﷲ، وأوبق نفسَهُ بالكفر به في طاعته خليله الذي صدّه عن سبيل ربه، فيقول يا ليتني اتخذت مع الرسول في الدنيا سبيلاً، أي طريقاً إلى النجاة من عذاب ﷲ.

وقوله، (لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني..) يقول جلّ ذكره مخبراً عن هذا النادم على ما سلف منه في الدنيا من معصية ربه في طاعة خليله لقد أضلني عن الإيمان بالقرآن فصدني عنه. ويقول سبحانه (..وكان الشيطان للإنسان خذولا) يقول مسلّماً لما ينزل من البلاء غير منقذه ولا منجيه.

فهذا صديق يقول وهو يعض على يديه لقد أضلني عن الذكر. والنبي ﷺ يحذر ويقول فيما صححه الألباني عن أبي هريرة قال: قال رسول ﷲ ﷺ «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»

واحذر مصاحبةَ اللئيمِ فأن خلائق السفهاء تعدى
تجنب مجالس أهل الفساد وقايض دنوك منهم ببُعدِ
فقد يفسد المرء بعد الصلاح فساد الأماكن والشَّرّ يعدي

وقيل:

صاحب أخا ثقة تحظى بصحبته فالطبع مكتسب من كل مصحوب

كالريـح آخذة ممـا تمر بـه نتناً من النتن أو طيب من الطيب

وقال آخر:

واحـذر مصادقة السفيه فإنه يعدى كما يعدى الصحيحَ الأجربُ

وقال: أيضا فيما صححه الألباني « أولياء اللهﷻ تعالى من إذا رُءوا ذُكر اللهﷻ تعالى وروي بلفظ «خير الأصحاب من إذا نسيت ذكروك وإذا ذكرت أعانوك « أو كما قال ﷺ وفي حديث أخر يقولﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي « فلابد للإنسان من صحبة صالحة.. الصحبة التي تذكرك بالخير في كل لحظة إذا فاتك موعد الصلاة ذكروك، وإذا سَهوت عن وردك القرآني نبهوك،وإذا أردت معاونة على مذاكرة وتحصيل دروسك ساعدوك، أو كنت في أزمة وقفوا معك، نهجهم الإسلام ودليلهم القرآن، طابعهم الرحمة، وخلقهم التواضع، ودَيدَنهم الحلم والرفق، وشعارهم التأني، تفكيرهم عميق، وأسلوبهم رقيق، يهتمون بأمور المسلمين ويقضون حوائج الناس، ويؤثرون على أنفسهم إخوانهم ويحبون الخير للجميع، ويدعون إلى اللهﷻ على بصيرة وخلق وفهم... يبرون والديهم ويَصلون رحمهم، ويرحمون الصغير منهم، ويوقرون الكبير فيهم، ويتقنون أعمالهم، ومتفوقون في دراستهم فهؤلاء هم الصحبة، هؤلاء من ينجوا المرءُ بصحبتهم ويفلح برفقتهم، وهم موجودون في كل مكان ولا يخلوا منهم زمان وإلا لفسدت الأرض

بعد صلاح، ولَخَرِبت بعد عمران، عليكم بهم فهم رهبان بالليل فرسان بالنهار، وإياكم وصحبة السوء فإنما «صديقك قطعة من ثوبك فانظر بأي شيء ترقّع ثوبك»

عن أبو موسى الأشعريّ قال: قال رسول ﷺ « إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير..، فحامل المسك إما أن يحذيَكَ وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة.» فانظروا إخواني الشباب.. من تصاحبون ؟ أحامل المسك أم نافخ الكير» !؟

قال الشاعر:

ولأن يعادى عاقلا خير لـه من أن يكون له صديق أحمق

فارغب بنفسك أن تصادق أحمقا أن الصديق على الصديق مصدق

وقد ذكر النبيﷺ في هذا المعنى قوله «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» فمن أراد طريقاً للجنة واضحة حقاً فعليه بالصحبة الصالحة.

كانت الصحبة سبباً في كفر كثير من المشركين فهذا عقبة بن أبي مُعيط وكان صديقاً لأبي جهل وأمية بن خلف وبعض صناديد الكفر في مكة، وكان خارج مكة في أثناء دعوة الإسلام فلما رجع اسمعه النبي شيئاً عن الإسلام وشيئاً من القرآن فأُعجب أشدّ العجب بما سمع من النبي، فكاد أن يؤمن، فذهب ليسلّم

على أصدقائه الكفار في مكة فأخبروه بخبر النبي، فرد عليهم قائلا لهم بإعجابه الذي كان عليه والله أن ما يقوله مُحمد ليس من كلام البشر، وأنه ليدعوا إلى الفضيلة وينهي عن الرذيلة..، ثم أنه أخبر أصحابه الكفار بعدد من فضائل القرآن والإسلام ورسول الإسلام، فما كان منهم إلا أن سفّهوه وأهانوه، وقالوا له لقد صبأت وسحرك محمد بلسانه حتى قلت ما قلت، والله لا نجالسك ولا نكلمك ولا نوادّك ولا نؤاكلك أبداً حتى تكفر بمحمد وحتى تذهب إليه وتبصق في وجهه وهو في حِجر الكعبة حتى نعلم أنك لم تُسلم بعد، فمازالوا به حتى فعل ما أمروه به، وبصق في وجه النبي الشريف فدعي عليه النبي وقال فيه أنه أشقى القوم، وعلى النقيض كانت صحبة أهل الخير خيرا لأصحابها، فانظروا فصحبة الخير كانت سببا في إسلام أبي بكر، فقد كان صديقا للنبي قبل البعثة فما أن بُعث النبي حتى أخبر أبا بكر فكان أول من أسلم من الرجال، وهذا على بن أبي طالب أول من أسلم من الصبيان بصحبته للنبي ﷺ وغير ذلك الكثير مما تمتلئ به كتب السيرة والتاريخ الإسلامي، وذلك لأن الجليس الصالح يذكرك إذا نسيت، ويعلمك إذا جهلت، ويدلك على الخير، وينهاك عن الشر، يُسمعُك علما نافعا، وقولا صادقاً، وكلاما طيبا، وحكما بالغة، يُعرّفك عيوبك، ويشغلك عما لا يعنيك، إن كان قادراً سدّ خلّتك، وقضى حاجتك، إن غفلت

عن ذكر ﷻ ذكرك، وأن أهملت بشّرك وأنذرك، يعتني بك غائبا أو حاضرا، يغفر زلتك، ويقيل عثرتك، ويستر عورتك، إن اتجهت إلى خير حثّك عليه، وكان لك عونا عليه، وإذا أردت أن تعمل سوءاً حال بينك وبينه، صاحبك هو من لا يملّ قربك، ولا ينساك على بعدك، تُسرُّ بحديثه إذا حضر، وتحنّ إليه إذا غاب، يُزَيِّنُ لك الطاعة ويحثك عليها، ويُقبِّح لك المعصية ويُبعدك عنها، ولا تزال تنتفع منه حتى يكون كبائع المسك وأنت إمّا مشتري أو المهدى إليه، هذا هو الصاحب الحقيقي وغيره فليس بصاحب.

قال أبو الدرداء ﷺ (لولا ثلاثٌ ما أحببت البقاء ساعة: ظمأ الهواجر، والسجود بالليل، ومجالسة أقوامٍ ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب الثمر).

وقال الشافعيُّ رحمه ﷻ: (لولا القيام بالأسحار، وصحبة الأخيار، ما اخترت البقاء في هذه الدار). وقال أيوب السختياني رحمة ﷻ تعالى عليه: (إذا بلغني موت أخٍ لي فكأنما سقط عضو مني). قال الأصمعي: (إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ووفاء عهده، فانظر إلى حنينه إلى إخوانه، وتشَوّقه إليهم).

صحبة السوء، كان النبي يتعوّذ من صاحب السوء في دعائه فيقول ﷺ «اللّهمّ أني أعوذ بك من صاحب السوء، ومن جار السوء في دار المقامة»

التاسعة: القرآن حياة

تبلورت كل الرسالات في القرآن الكريم والذي جاء تبياناً لكل شيئ والذي تكفل اللهُ تعالى بحفظه، لأنه الدائم المستمر الذي لا ينسخه شرع ولا يُهيمن عليه كتاب، وهو الذي تكفل بسير البشرية بسلامة العقيدة وصحة العبادة لله وكريم المبادئ والقيم السامية حتى قيام الساعة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ {الحجر/٩}

وقد جمع اللهُ في القرآن كل أصول الهداية في كل مناحي الحياة: الفكرية، والنفسية، والتربوية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، كما أشار القرآن الكريم إلى التجارب السابقة للبشرية مع الأنبياء، وما كان لها من نتائج من حيث القبول والرد والإتباع وعدمه وذلك ليكون دروساً وعبراً لأمة الإسلام ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ {يوسف/١١١}

فالإسلام منهج حياة، والقرآن هو الدستور لمن يتخذون الإسلام منهجاً، يقول سبحانه:

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ {يونس/٥٦-٥٨}

إذن فالقرآن هو المصدر الأول لسعادة البشرية في تشريعها وفي تعاليمها وتربيتها، وفي أخلاقها وفكرها، وفي اجتماعاتها، وفي سلمها وحربها..! ولابد معه من سنة النبي المبينة له.

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ {الحشر/٧}

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ {النحل/٤٤}

وحديثنا عن القرآن الكريم لما له من دور واضح في بناء الإنسان عقيدةً وسلوكاً وأخلاقاً ومعاملات...

ومن فضائل قراءة القرآن الكريم وتدبره، في الدنيا والآخرة وفضل حملته: أنه جاء لهداية الناس جميعاً والمؤمنين المتقين خصوصاً، قال تعالى متحدثاً عن شرف وفضل شهر رمضان بنزول القرآن فيه فيقول فيه: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ {البقرة/١٨٥}

فالقرآن الكريم أعلى الذكر منزلة، فهو أحسن الحديث وهو الطيب من القول، مزامير الإنس من حضرة القدس، بألحان التوحيد من رياض التمجيد، هو كل الرحمات، وهو نعمة اللَّهُ الكبرى، وهو ذكر من اللَّهُ قال سبحانه وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ {العنكبوت/١٥}وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ .

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ {فاطر/٢٩-٣٠}

وعن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أوصِنِي قَالَ ﷺ أوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَهَا رأْسُ الأمر كلّه. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي قَالَ ﷺ: عليك بتلاوة القرآن وَذِكرِ اللهِ عَزَ وَجَلَّ فِأنهُ ذِكرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ وَنُورٌ لَكَ فِي الأَرضِ (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: زِدْنِي قَالَ ﷺ (إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضّحِكِ فَأنهُ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَذْهَبُ بِنُورِ الْوَجْهِ) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي قَالَ ﷺ: (عليك بِالْجِهَادِ فَأنهُ رهبانيَّةُ أُمتي، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي قَالَ ﷺ: (أَحِبَّ الْمَسَاكِينَ وَجَالِسْهُمْ) قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي، قَالَ ﷺ: (انظر إلى مَنْ هُوَ تَحْتَكَ وَلا تَنْظُرْ إلى مَا هُوَ فَوْقَكَ فَأنهُ أَجْدَرُ أن لا تَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللهِ عِنْدَكَ) قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي قَالَ ﷺ: (قُلِ الْحَقَّ وَأن كان مُرًّا) رواه أصحاب السنن. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (ليس حفظ القرآن بِحِفْظِ الْحُرُوفِ وَلَكِنْ بِإِقَامَةِ حُدُودِهِ) أَثَرٌ حَسَنٌ رَوَاهُ ابْنُ المبَارَكِ فِي الزُّهْدِ.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو يتعتع فيه وهو شاق عليه له أجران» رواه البخاري، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُترُجّة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل الثمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر» متفق عليه.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي قال: «أن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» رواه مسلم وغيره، وعن أبي أمامه الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» رواه مسلم وغيره، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما علمه النبي ﷺ قال: «لا حسد (الحسد هنا: الغبطة المحمودة) إلا في اثنتين: رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به أناء الليل وأناء النهار، ورجل أتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» أي طرفه ووسطه متفق عليه. وعن أبي إمامة أن رسول الله ﷺ قال: «اقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه، أما إني لا أقول (الم) حرف ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر، فتلك ثلاثون حسنة» صحيح الجامع. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أن لله تعالى أهلين من الناس» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال «أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته» صحيح رواه احمد وغيره.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «من سره أن يحب الله ورسوله فليقرأ في المصحف» صحيح الجامع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « بينما جبريل -عليه السلام- جالس عند النبي ﷺ إذ سمع نقيضاً -أي صوتاً- من فوقه فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء فتح لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته» رواه مسلم.

وعن أبي إمامة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «ما أذن الله لعبد في شيئ أفضل من ركعتين يصليهما، وإن الله لينزل على رأس العبد مادام في صلاته، وما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه -يعنى القرآن» رواه الترمذي وحسنه.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فأن منزلتك عند آخر آية تقرأها» صحيح الترمذي، وقال الإمام الخطابي رحمه الله تعالى جاء في الأثر أن عدد آي القرآن على قدر دَرَجَ الجنة فيقال للقارئ ارق في الدرج على قدر ما كنت تقرأ من آي القرآن، فمن استوفي قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درجة الجنة، ومن قرأ

جزءاً كان رقية في الدَرَج على قدر ذلك فيكون منتهي الثواب عند منتهي القراءة».

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللهﷺ «من حافظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين» صحيح ابن خزيمة.

فعن بريدة بن الحصيب ﷺ قال: كنت جالسا عند النبيﷺ فسمعته يقول: «تعلموا سورة البقرة فأن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة » قال: ثم مكث ساعةً ثم قال: «تعلموا سورة البقرة وآل عمران فأنهما الزهراوان، يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو فرقأن – من طير صواف، وأن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك! فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل رجل من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حليتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بما كسبنا هذه؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له: اقرأ واصعد في وجه الجنة وغُرَفها فهو في صعود ما دام يقرأ هذا: أو كان يرتل ترتيلا » صحيح أخرجه أحمد وغيره.

وفي رواية أخرى قَالَ ﷺ: «يَجِيءُ القرآن يَوْمَ القِيَامِةِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ هَل تَعرِفُنِي أنا الَّذِي كُنتُ أُسهِرُ لَيْلَكَ وأظمئ هَوَاجِرَكَ وَأن كُلَّ تَاجِرٌ مِن وَرَاءِ تِجَارَتِهِ وَأنا لَكَ اليوم مِن وَرَاءِ كُلِّ تَاجِرٍ فَيُعطَى الملكَ بِيَمِينِهِ وَالخُلدَ بِشِمَالِهِ وَيُوضَعُ على رَأسِهِ تَاجُ الوَقَارِ وَيُكسَى وَالِدَاهُ حلتان لا يَقُومُ لَهُمَا الدُّنيَا وَمَا فِيهَا فَيقولان يَا رَبِّ أنى لَنَا هَذَا فَيُقَالُ لَهُمَا بِتَعليم وَلَدِكُمَا القرآن وَأن صَاحِبَ القرآن يُقَالُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إقرأ وِأرقَ فِي الدَّرَجَاتِ وَرَتِل كَمَا كُنتَ تُرَتِلُ فِي الدُّنيَا فَأن مِنزِلَكَ عِندَ آخِرِ آيَةٍ مَعَكَ».

وهذا نبينا ﷺ يكرم أهل القرآن أحياءً وأمواتاً..... ويقدمهم على من سواهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال بعث رسول الله ﷺ بعثاً، وهم ذوعدد فأستقرأ كل رجل منهم يعنى ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟ « قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال «أمعك سورة البقرة ؟» قال: نعم.قال: اذهب فأنت أميرهم « فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألّا أقوم بها.

ويقول ﷺ «تعلموا القرآن وأقرأوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب محشوّ مسكاً يفوح ريحه في كل مكان، ومن تعلمه فيرقد وهو في جوفه فمثله كمثل جراب أوكئ أي (ربط)

على مسك» صحيحه الألباني.

تقديم حافظ القرآن على غيره حتى في الدفن قال النبي ﷺ يوم أحد « زملوهم في ثيابهم « قال: وجعل يدفن في القبر الرهط، وكان يقول: « قدموا أكثرهم قرأناً « صحيح رواه أحمد. ولما أشرف رسول الله ﷺ على قتلي أحد، فقال «أشهد على هؤلاء ما من مجروح جُرح في الله عز وجل إلا بعثه الله يوم القيامة وجُرحَه يدمي، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، انظروا أكثرهم جمعاً للقرآن فقدموه أمامهم في القبر» صحيح رواه احمد.

وليس هذا وفقط بل كان النبي يقدم قارئ القرآن وإن كان صبياً صغيراً على أكابر القوم في الصلاة إماماً بهم، وليس ذلك لشيء إلا لأنه أقرؤهم لكتاب الله.

يروي لنا سيدنا عمرو بن سلمة أنه ذهب في وفد من قومه إلى النبي ﷺ فلما أرادوا أن ينصرفوا قالوا يا رسول الله من يَؤُمّنَا؟ قال «أكثركم جمعاً للقرآن أو قال أخذاً للقرآن.. قال عمرو: فلم يكن أحد من القوم جمع من القرآن ما جمعت، قال فقدموني وأنا -يومئذ غلام- فكنت إمامهم، قال: وما شهدت مجمعاً إلا كنت إمامهم وأصلي على جنائزهم إلى يومي هذا وفي رواية « فقدموني وأنا غلام فصليت بهم وعلى بُردةً وكنت إذا ركعت أو سجدت قَلصَتْ (أي جُمعت) فتبدو

منها عورتي فلما صلينا قالت عجوز لهم، غطوا عنّا إسْت -أي مقعدة- صاحبكم أو قارئكم!! قال عمرو: فقطعوا لي قميصاً ففرحت بهذا القميص فرحاً شديداً» صحيح.

النبي يرفع من شأن من يحفظ القرآن، فيقول فيما رواه أبو موسي الأشعري ﷺ قال: قال رسول ﷺ «إن من إجلال ﷺ تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط» حسنه الألباني.

عاشوا مع القرآن

الأول: سيدنا عثمان بن عفان ﷺ (كان يقرأ القرآن كله في ركعة الوتر قال الإمام محمد بن سيرين رحمه الله قالت امرأة عثمان حين قتل ﷺ « لقد قتلتموه وإنه ليحيي الليل كله بالقرآن في ركعة الوتر».

وعن الحسن، قال: قال عثمان ﷺ «لو طهرت قلوبكم شبعنا من كلام ربكم وأني لأكره أن يأتي يوم لا انظر فيه في المصحف» وما مات عثمان حتى فرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه « البداية والنهاية ».

الثاني: عمر بن الخطاب ﷺ ومرضه عند سماع آيات من القرآن: عن الحسن ﷺ قال: قرأ عمر بن الخطاب قوله تعالى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ {الطور/٧-٨} فربا منها ربوة -أي صعق- مرض وعاده الناس ثلاثة أيام

وعن عبد الله بن شداد قال: سمعت نشيج البكاء الحار من عمر بن الخطاب وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح وهو يقرأ في سورة يوسف حتى بلغ: « إنما اشكوا بثي وحزني إلى الله» {يوسف/٨٦} ثم أنقطع فركع.

الثالث: تميم الدّاري وحاله مع القرآن

رزقنا ﷻ وإياكم الطاعة وثبتنا وإياكم عليها ونسأل ﷻ سبحانه أن نكون من أهل القرآن الكريم العالمين به العاملين به، أولئك الرجال يا شباب الإسلام.

«إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ونسأل ﷻ أن يبصرنا بعيوبنا، وأن يشغلنا بما فينا عن الآخرين، أنه ولي ذلك والقادر عليه.

العاشرة: أصلح نفسك وادعُ غيرك

«طوبي لمن شغله عيبه عن عيب غيره... من يُحرم الرفق يحرمُ الخير»

لننظر إلى ما أمر ﷻ به نَبِيَّيْهِ الكريمين موسى وهارون – عليهما الصلاة والسلام – أن يَدعُوَا فرعون بالرفق واللين، فقال: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ {طه/٤٣-٤٤}

وهذا هو المطلوب في الدعوة إلى ﷻ والرفق فيها بالمدعوّين.

ووصف ﷻ الصحابة الكرامُ بالتراحم فيما بينهم، فقال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ {الفتح/٢٩}

ونظراً لوقوع بعض الملتزمين وبعض طلبة العلم، في آفة التجريح

والنظر في عيوب الآخرين ممن يعملون للإسلام، وتصيّداً لأخطائهم ولا يخلو بشر من الخطأ، وهم بشر يخطئون ويصيبون، فليس هناك عصمةٌ لأحد من البشر غير الأنبياء.

والعالم إن أخطأ فله أجر واحد وإن أصاب فله أجران كما هو معلوم، فالعالم على كل حال على خير فما بالك تتكلم فيه وتُشَهِر به على الملأ وتقول أخطأ فلان وفلان وهكذا وهو على هذا أو ذاك مأجور، فيا شباب المسلمين إن كانوا هم علماء مُعترف بهم فإن جاز لهم هذا الكلام فكيف يجوز لنا نحن كأفراد أن نتكلم فيهم.

وما أحسن قول الإمام مالك رحمه الله «كلٌ يأخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر ويشير إلى قبر النبي ﷺ، وهذا منقول عن جماعة من أهل العلم في تقرير وتوضيح اغتفار خطأ العالم في صوابه الكثير: قال سعيد بن المسيب (ت ٣٩ هـ) «ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضلٍ إلا فيه عيب ولكن من كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصه لفضله « وقال عبد الله بن المبارك (ت١٨) «إذا غلبت محاسن الرجل على مساوئه لم تُذكر المساوئ إلّا له وعلى سبيل التنبيه لا على سبيل التشهير..» فماذا لو رأي هؤلاء أحوالنا الآن ونحن نُخطّئ العلماء والدعاة ونتصيّد لهم الأخطاء، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.. يقول الإمام أحمد (ت١٤٢هـ) « لم يعبر الجسر من خراسان مثل إسحاق

(عنى ابن راهوية) وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضا « وهذا أصل في الاختلاف ولكن مع حفظ المكانة والقدر لمن تختلف معه.

وقال الإمام الذهبي (ت ٨٤٧ هـ): « ثم أن الكثير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعُلم تَحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكائه، وعُرف صلاحه وورعِه وأتّباعه، يُغفر له زلَاتهُ، ولا نضلله ونطرحه ولا تُنسى محاسنه، لكن لا نقتدي به في بدعته وخطئهِ، ونرجوا له التوبة من ذلك.. ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له قمنا عليه وبدعناه وهجرناه، لما سَلِمَ لنا لا ابن نصر ولا ابن مندَه – هما من أكابر العلماء في الإسلام – ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادى الخلق إلى الحق وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة «

وقال أيضاً: ولو أن مَن أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه وتوخّيه لاتباع الحق أهدرناه وبدعناه، لقلّ مَن يسلم مِن الأمة معنا.

وقال أيضاً: ونحب السنة وأهلها، ونحب العالِم على ما فيه من الإتباع والصفات الحميدة، وإنما العبرةُ بكثرة المحاسن.

انتهي كلام الذهبي رحمه اللهُ.

وقال ابن القيم رحمه اللهُ (ت ١٥٧ هـ) في اعلام الموقعين عن رب العالمين «ومعرفة فضل أئمة الإسلام ومَقاديرِهم وحقوقهم ومراتبهم، وأن فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ورسوله لا يوجب قبول كل ما

قالوه، وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول، فقالوا بمبلغ علمهم والحق في خلافهم لا يوجب طرح أقوالهم جملةً أو تناقصهم، والوقيعة فيهم فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصد السبيل بينهما أن لا تُؤَثِّم ولا تُعَصِّم.. ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قَطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قلم صالح وآثارٌ حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والذلة هو فيها معذور مأجور لاجتهاده، فلا يُتبع فيه، ولا يجوز أن تُهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين « وقال بن رجب الحنبلي (ت ٥٩٧هـ): «ويأبى اللَّهُ العصمة بكتاب غير كتابه والمنصف من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير من صوابه»

اسمعوا إخواني في اللَّهُ إلى ابن القيم وهو يقول ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين، لا كما يفعل هؤلاء الذين ابتُلِيَت بهم الأمة..

فتنه التجريح والهجران

حصل في هذا الزمان انشغال البعض من طلبة العلم من أهل السنة ببعض تجريحاً وتحذيراً، وترتب على ذلك التفرق والاختلاف والتهاجر كما نرى من حالنا الآن والتي لا تخدم إلّا الأعداء، وكان اللائق بل المتعيّن على الجميع التواد والتراحم بينهم، ووقوفهم صفاً

واحداً في وجه أعداء الأمة.

وترجع فتنة التجريح -فيما أحسب- إلى ثلاثةِ أسباب

الأول: قلة الوازع الديني والاعجاب بالنفس فهؤلاء جعلوا ديدنهم وشغلهم الشاغل تتبع أخطاء مخالفيهم والتي لا يخلو منها بشر.

الثاني: الجهل بالواقع الذي تعيشه الأمة وعدم ترتيب الأولويات عندهم.

الثالث: قلة الأمانة العلمية عند من ينقلون إلى هؤلاء المشايخ من بعض طلبة العلم فيأتون بكلام مبتور من كلام بعض العلماء حسب ما يوافق أهوائهم

ولهذا فلابد أن يكون قصدك إظهار الحق، لا إظهار العيوب والأخطاء فإن من كان قصده إظهارالحق وُفقَ للقبول، أما من كان قصده أن يُظهرَ عيوب الناس وخصوصاً الدعاة فإنه مُتتبع للعورات ومن تتبع عورة أخيه تتبع اللهُ عورته، ومن تتبع اللهُ عورته فضحه ولو في بيت أمه.

قال الحسن: لما سمع قوماً يتجادلون فقال إن هؤلاء ملّوا العبادة فخف عليهم القول، وقل ورعهم فتكلموا في الخلق، فالجدال لا يزيدك إلا قسوة في القلب، وكراهية في الحق وخاصة إذا كان الحق مع خصمك وغلبك فيه، فيالت شعري لو يعكف هؤلاء على هذه الأمور فيعالجونها في أنفسهم».

وأخيرا

طريق السلامة من هذه الفتن

– أن يتأدب بأدب الحوار مع الآخرين وبخاصة العلماء والدعاة؛ وعليه أن يعلم أن الخلاف بين الناس أمر طبيعي مشهور.

– معرفة أسباب الخلاف المشروع بين الناس.

– أن دلالة بعض النصوص الشرعية ظنية، وليست قطعية فتحمل أكثر من اجتهاد في تحديد معناها.

– اختلاف العقول والأفهام، وتفاوت المدارك.

– عدم بلوغ هذا العالم أو ذاك الدليل فيقول العالم القول ولو بلغه الدليل في المسألة لما قال به.

– أن يتقى الله كل من أشغل نفسه بتجريح العلماء والدعاة، وينشغل بالبحث عن عيوبه هو للتخلص منها بدلاً من الاشتغال بعيوب الآخرين، ويحافظ على الإبقاء على حسناته فلا يضيق بها ذرعاً، فيوزعها على من ابتليَ بتجريحهم أو النيل منهم، وهو أحوج مِن غيرهِ إلى تلك الحسنات في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

– أن يُشغِل نفسه بدلاً من التجريح والتحذير بتحصيل العلم النافع، والجد والاجتهاد فيه ليستفيد هو ويفيد غيره، وينتفع وينفع، فمن الخير بالإنسان أن يشتغل بالعلم تعلما وتعليما ودعوةً وتأليفاً، ليكون من أهل البناء لا من أهل الهدم، ولا

يُشغل نفسه بتجريح العلماء أو طلبة العلم من أهل السنة، وقطع الطريق الموصلة إلى الاستفادة منهم، ومثل هذا المشتغل بالتجريح لا يَخلُف بعده إذا مات علماً ينتفع به، ولا يَفقد الناس بموته عالماً ينفعهم، بل بموته يَسلمون من شره وآذاه.

- من كان عنده علم بأحوال أشخاص معينين يمكنه أن يُبَيِّنَه بِقَدَره ولا يزيد عليه ويكون في صلب الموضوع ويكون بالحب والمودّة لاعن طريق التشهير والفضيحة وبيان الزلات لأجل الوصول لغرض عنده - كما يحدث - وليكون صدور التجريح والتحذير- إذا صدر- يكون من جهة يُعتمد عليها في الفتوى وفي بيان من يؤخذ عنه العلم ويُرجع إليهم في الفتوى، ولا شك أن الجهة التي يرجع إليها في الإفتاء في المسائل هي التي ينبغي الرجوع إليها في معرفة من يُستفتى ويؤخذ عنه العلم، وألا يجعل احد نفسه مرجعاً في مثل هذه المهمات؛ فإنه من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وقيل قديما « يحي الحق بذكره ويموت الباطل بتركه». (ومن أراد المزيد فليراجع كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام للإمام ابن تيمية، أو الخلاف بين العلماء أسبابه وموقفنا منه للشيخ سلمان العودة)

هذا وما كان من توفيق فمن اللّٰه وحده وما كان من خطاء أو زلل فمن نفسي ومن الشيطان وأعوذ بالله أن اذكر به وأنساه، والله أسأل أن يُجازي خيراً كل من نظر في هذا الكتاب بعين الرضا وأرشدني إلى الأحسن وأقول لمن يقرأ استر وتجاوز وصحح قدر

المستطاع فهو جهد بشري فإنما أنا كما قال القائل:

أني كتبت وأيقنت يوم كتابتي أن يدي تفنى ويبقى كتابُها
فإن عَمِلت خيراً تُجزى بمثله وإن عَمِلت سوءً فعليها حسابُها

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

كتبــه الفقير إلى عفو ربه
عبد الجوّاد أحمد عبد المولي السيوطي
أبو محمود
أسيوط – ديروط – نجـع سويلم

المراجع

١- القرآن الكريم
٢- في ظلال القرآن أ/ سيد قطب
٣- المختصر لصحيح مسلم مسلم بن الحجاج
٤- شرح صحيح مسلم للنووي للنووي
٥- صحيح البخاري للبخاري
٦- فتح الباري لابن حجر العسقلاني
٧- صحيح الجامع الألباني
٨- السلسلة الصحيحة الألباني
٩- البداية والنهاية لابن كثير
١٠- صور من بلادي (ديوان شعر) د/ وليد قصاب
١١- صلاح الأمة في علو الهمة د/ سيد حسين العفاني
١٢- الغزو الثقافي للأمة الإسلامية ماضيه وحاضره منصور عبد العزيز
١٣- الغزو الفكري وأثره على المجتمع الإسلامي د/ على عبد الحليم محمود
١٤- عدة المجاهدين نبيل حامد المعاز
١٥- الإسلام والشباب كيفية حمايته من الانحراف د/ عادل محمد درويش
١٦- عمر بن عبد العزيز محمد عبد الله الخطيب
١٧- كلمة إلى شباب الأمة د/ راغب السرجاني
١٨- حقبة من التاريخ أ/ عثمان الخميس
١٩- هويتنا أو الهاوية د/ محمد إسماعيل المقدم
٢٠- سر تأخر العرب والمسلمين الشيخ الغزالي
٢١- ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله د/ سيد حسين العفاني
٢٢- أصحاب الرسول الشيخ محمود المصري
٢٣- الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي فريق البحوث والدراسات الإسلامية

٢٤- الدولة العثمانية د/ على محمد
٢٥- واقعنا المعاصر محمد قطب
٢٦- مذاهب فكرية معاصرة محمد قطب
٢٧- كيف نكتب التاريخ الإسلامي محمد قطب
٢٨- معالم على الطريق سيد قطب
٢٩- هل نحن مسلمون سيد قطب
٣٠- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي د/ الصلابي
٣١- صور من القرآن د/ علاء الدين محرم
٣٢- سلسلة روضة الدعاة ، الحج دروس وعبر د/ أسامة جادو
٣٣- قطوف من حدائق السيرة المطهرة د/ محمود محمد عمارة
٣٤- السلسلة الذهبية محمود المصري
٣٥- نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي د/ عبد الرحمن الحجي
٣٦- تراجم شهداء بدر الشيخ أحمد بن سعيد الأنبالي
٣٧- المخاطر التي تواجه الشباب المسلم د/ مصطفي محمد حلمي
٣٨- علو الهمة د/ محمد اسماعيل المقدم
٣٩- التربية في القرآن أ/ محمد عبد الله السمان
٤٠- الثمار الذكية للحركة السنوسية د/ على الصلابي
٤١- كيف تكون أباً ناجحاً عبد الله محمد عبد المعطي
٤٢- نحو مشروع حضاري للنهضة " رؤية إسلامية " د/ حمدي شاهين
٤٣- خلق المسلم محمد الغزالي
٤٤- فن تربية الأولاد في الإسلام محمد سعيد مرسي
٤٥- تربية الأولاد في الإسلام عبد الله ناصح علوان
٤٦- التربية الإسلامية د/ عبد القوي محمد حسين

الفهرست

في البداية ٧
مقدمة المؤلف ٨
يا شباب الأمة ١١
مثال حيّ ٢٢
القرآن والسنة يوضحان ٢٥
القرآن والشباب ٢٧
السنة تُقَرّر ٣٣
أمل وطموح ٣٥
نماذج ٤٠
الحِبُّ ابن الحِبّ ٤٠
السفير الشهيد مصعب بن عمير ٥٢
الخليفة الخامس ٦٢
قصةٌ عجيبةٌ وورعٌ مطلوب ٦٢
"الرشيد" المتواضع ٧١
ترجمان الرسول ٨٤

ورحل القارئ ٩٠
أسد المنابر ٩٣
أيّها شباب ١٠٠
قلة الاعتنا بالتاريخ ١٠٢
لماذا ندرُسُه؟ ١٠٦
السنن الكونية ١٠٨
التاريخ يقرأ لك المستقبل ١١٣
يُعين على فهم الواقع ١١٤
متى تبدأ التربية؟ ١٣١
تربويات ١٣٣
الإعلام وآثاره ١٤٤
تحليل ١٤٨
من جرائمهم ١٥٠
وصايا ١٥٤
عاشوا مع القرآن ٢٢١

عن الدار ومشروع النشر الحر

دار لوتس للنشر الحر هي أول دار نشر حرة يملكها كل كاتب، تعتمد مبدأ النشر الحر من خلال مشروع طموح يهدف إلى تخطي عقبات النشر ومساعدة الكاتب للنشر بطريقة تمنحه الحرية الكاملة وكل الحقوق والصلاحيات للتعامل مع كتابه دون استغلاله مادياً أو معنوياً، ودون احتكار لمجهوده الفكري في عملية تجارية، وبدون تكلفة مالية.

هي مشروع خدمي وليس تجاري، تدعم الكاتب الموهوب وتسانده، تحاول الارتقاء بمستوى الأدب وتهدف إلى احترام الكاتب والقارئ من خلال نشر كل ما هو جيد دون الإساءة لشخص، أو أشخاص، أو مؤسسات، أو أفكار، أو عقائد، أو ديانات، أو أنظمة سياسية.

دار لوتس للنشر الحر
مصرية مغربية، تأسست في مايو ٢٠١٧

إصدارات المشروع

قلم عطر
وعادت ريما
مثل ليلة حب
وكأني أحبك
عالم قراطيس قراطيس
أوتار
دماء على ثوب أبيض
أموات فوق الأرض
بقلم رصاص
حريق على الجسر
القدرات السحرية
العالم لن ينتظرك
عندما ينتحب الياسمين
مرايا
البوهيمي
أيها الشباب لا تفقدوا الأمل
خريف مريم
حلم صريع
مُتيم
يوميات رجل محسود
هدوء ما قبل الانفجار
الموؤودة
أنين المساجد
صوت السماء
طبق كشري
وأحببتك بعين قلبي
ما لا تعرفه عن الهجرة
الأيام الأخيرة
موانئ الرغبة
١٠٣
زمن الحنين
أوراق على دفتر الحنين
أحببتُ شبحاً

حكايات من التاريخ
كلمات ربي (ج١)
وشم على كتف الحياة
كيتو ياكيفو
يتيمة بأبوين
مائة عام على كوكب الأرض
نبوءة عاشق
رصيف نمرة ٢
قمر الدم
حنين الحنين
نساء وقيود
الآهات المكبوتة
عن الذي استدان ليشتري الشقاء
كتبتُ أحبك
فلاكا
الآدم وهي
أحلام فجر
مفاهيم إدارية لثالث ألفية
عاشق الضي
أنامل قصصية
مملكة روح
ماهر وسماهر وبئر النسيان
الضال
خليج بلا وافدين
في ليلة شتا
الشيطانة وعصا الجحيم
أنين وردة
لا تتعجلي الرحيل
بدون
من الأكاديمية إلى الفيلا
بردية رع (ذهاب وعودة)
كاتب ونساء وعبث
جيهينا

مذكرات خادمة من مونار
بعيداً عن العالم
قمر الدم (العودة)
سئمت الغربة
هكذا ضعنا
حلم
شيء من قلبي
قطوف وحروف
عائدة من الموت
شياطين السموم
حوار في الأفكار
وأد الزهور
أغاني البادية
الفراشة البيضاء
مدينة حرف
عذرية ما قبل الواحدة صباحا
حواديت مدينة الرحاب
الضحية
غيمات حبر وحب
كهف الجحيم
الحبيب المستحيل
تنمية التفكير الابتكاري للطفل
المنهج الإصلاحي
نفيش
ورد وشظايا
ولوج
الفن مين يعرفه
كريتوس
عهد
نبض حرف لا يخون
عبد اللاه
ساكني الكهوف
أخبرت البحر عنك

أحرفي تتراقص
لا تحزني
حلم عاشق
إحساس درويش
أقلام حائرة
خشوع بمحراب الحب
قمر الدم (رحيل الآلهة)
أرض الفيروز
عبرات ضاحكة
أنا يحيى
نظم المعلومات المحاسبية
حكاياتي المحروسة
حروف من قلبي
على الأعراف
زواج افتراضي
رجماً بالغيب
ألمانتا
خواطر مع الريح
شمعة وقلم أحمر
أسلوب العدول في القرآن الكريم
الفستان الأزرق
سيجار ولص ومأذنة
الحب المفقود
القيامة الوردية
كلمات متقاطعة بالشمع الأحمر
لماذا رحلت؟
جدال
التقارير المالية
موسم التوت
عبث
سلسلة المحاسب المتميز (ج١)
هل ستغفر لي
سفاح المدينة
ناروبري
حبيبة أمها
التيسير في علم التأسيس
همسات ونسمات

الملاك الأسود
ملكوت السلطانة
أنات عاشق
ساعة من الزمن
زمان غادرنا
رقة النسائم
سبعة أحلام
في انتظار المد
نداء القلوب
درب الحكايات
ضجيج البحر
من تربة الورد خلقت
شهوات العقل
قطرات منثورة
أكروفوبيا
خِدر مسلوب
دروب ملتوية
سوط الذكريات
الأخيذة (قضية رأي عام)
المأدبة
سيناء أرض العبور
الذكاءات المتعددة
دكتاتورية الحب
الفراشات لا تسكن القبور
تذكرة سفر
وخشعت قلوبهم
وطن الجومانجي
نموذج بايبي البنائي
المدينة الهادئة
السفينة
رشفة عشق
المسكالين
حرف تايه
حروف نابضة
الراقدون فوق التراب ج١
أيقونة حروف عربية
ولاد الشيخ
فضفضة

الراقدون فوق التراب ج٢
بائعة اللبن
مركب شراع
غشاء حضارة
عظماء في الظل
الوصايا
معك دائما
نون وياء
اليمني
عندما يفوح الياسمين
عنوان مجهول
ترانيم
من بعد غياب
الرحيل إلى الداخل
ليالي باريس الحزينة
هكذا تكلم أبي
النحو الميسر
قيد الماس
أرض دي بلو
مناجاة
لحظة داخل إنسان
الذين أخفوا الشمس
أقلام نابضة
حكايا منتصف الليل
برواز على جدار القلب
كبير العيلة
وصمة عار
أخرى بضم الألف
اغتصاب أعشاب البحر
في ظل الحبر - ج١
أصعب فراق
للحب أكتب (أحمد وأحلام)
للحب أكتب (نادر ونورهان)
للحب أكتب (فارس ونادين)
اعرف دينك (ج١)
علماء صاروا شهداء
ضفاف
تأشيرة حياة

مجانين لا يدخلون الجنة
وجوه عابرة
امرأة خرافية
فيلم كارتون
أحوال منطقة أزواغ
محاولات
أربعون عام من الفقر
حطام زاحف
فوق السحاب
كلمات الحياة
إعصار الدم
العشق المنتظر
إيزيس
بذور الدم
حديث إلى النفس
موشور اللا متناهية

عن الكاتب

عبد الجواد أحمد عبد المولى آل موسى السيوطي، كاتب ومفكر مصري من مواليد أسيوط عام ١٩٧٥، حاصل على ليسانس أصول الدين والدعوة والشريعة الإسلامية جامعة الأزهر، وماجستير علوم القرآن جامعة القرآن وتأصيل العلوم.

– مدرس قرآن كريم وتربية إسلامية للمرحلتين الإعدادية والثانوية مدة سبع سنوات بالأزهر الشريف.

– عضو مقرأة بوزارة الأوقاف المصرية منذ عام ١٩٩٨.

– مؤسس لقسم القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية القيرغيزية بجمهورية قرغيزستان الإسلامية، وتخرج على يديه عدد من حفظة القرآن بها.

– مدرس للمواد الشرعية والتاريخ الإسلامي بالجامعة الإسلامية القيرغيزية بجمهورية قرغيزستان الإسلامية.

– محفظ للقرآن الكريم بمدرسة تابعة لوزارة الأوقاف المصرية منذ عام ١٩٩٨.

– إمام وخطيب ومدرس بوزارة الأوقاف المصرية منذ عام ٢٠٠٣.

– دراسات عليا بكلية الشريعة قسم أصول الفقه (تمهيدي ماجستير)

– رئيس لجنة التحكيم بالمسابقة الدولية للقرآن الكريم بجمهوريات وسط آسيا لسنتي ٢٠٠٨ و٢٠٠٩.

– حاصل علي أكثر من شهادة تقدير من مفتي الجمهورية وأكثر من

مسئول حكومي في مجال خدمة القرآن بجمهورية قرغيزستان الإسلامية.

– عمل منسقاً تعليمياً بمكتب الندوة العالمية للشباب الإسلامي بدولة قرغيزستان بوسط آسيا.

– مدرس للقرآن الكريم وعلومه بجمعية الليث الخيرية بمنطقة مكة المكرمة ٢٠١٠، ٢٠١١م.

– عمل مدرساً بمعهد القرآن والقراءات بالجمعية الشرعية ببرج العرب.

– يعمل الآن مشرفاً على حلقات مكتب تحفيظ القرآن الكريم بمستورة بالجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمحافظة رابغ /المملكة العربية السعودية.

للتواصل مع الكاتب

ahlElkurah@yahoo.com

شركة لوتس للإنتاج والتوزيع

كتاب لوتس - مشروع النشر الحر

www.lotusfreepub.com

جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠١٧ / ٢٦٦٥٧

غير مخصص للتوزيع التجاري - يوزع بسعر تكلفة طباعته فقط

يجوز نشر هذا الكتاب إلكترونيا مجاناً بعد عام من تاريخ صدوره
بعد موافقة الكاتب

مرخص أيضاً بموجب رخصة المشاع الإبداعي - نَسب المُصنَّف ٤,٠ دولي